اسم المادة: من المولد الى البعثة

من سلسلة: السيرة (بصائر١)

لفضيلة الشيخ: د. أحمد سيف

Way2allah.com

إنتاج فريق التفريغ بشبكة الطريق إلى الله

اسم المادة: من المولد الى البعثة
من سلسلة: السيرة (بصائر١)
لفضيلة الشيخ: د. أحمد سيف

السيرة ١

الحمد لله عدد ما خلق، الحمد لله ملء ما خلق، الحمد لله عدد ما في السموات وما في الأرض، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، الحمد لله على ما أحصى كتابه. الحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.
لا زلنا في غرفة الهداية الدعوية في موقع الطريق إلى الله مع دورة بصائر مع سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–. سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– أجمل سيرة، أخبار النبي –صلى الله عليه وسلم– وسرد أحداث حياة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

لماذا سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–؟

سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– علم؛ علمٌ ينبغي على كل مسلم أن يتعرفه. فرض على كل مسلم أن يتعرف على سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ كل على قدره، ليس فرضًا أن يعرف كل مسلم دقائق دقائق حياة النبي –صلى الله عليه وسلم–، لكن على قدر ما يتعلم الإنسان من سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– على قدر ما يكون أقرب إلى الله، على قدر ما يكون أفهم عن الله، على قدر ما يكون أقرب في الطريق إلى الله –سبحانه وتعالى–.
النبي –صلى الله عليه وسلم– قرءانًا يمشي على الأرض كما قالت أم المؤمنين عائشة، فإذا أردنا أن نفهم كتاب الله، وإذا أردنا أن نعرف كتاب الله –سبحانه وتعالى–؛ وأن نعرف تفسير وتطبيق القرآن فعلينا أن نذاكر، علينا أن نتعلم عن النبي –صلى الله عليه وسلم–.
فإذا أردنًا مثلا أن نعرف كيف نأكل؟ وكيف نشرب؟ وكيف نصلي؟ وكيف نقوم الليل؟ كيف نتعامل مع بعضنا البعض؟ كيف نبيع وكيف نشتري؟ كيف ندخل الخلاء؟ كيف نتعامل مع نسائنا؟ مع أبنائنا؟ مع أعدائنا؟ هذا كله آيات موجودة في كتاب الله –عز وجل– لكن تطبيق هذه الآيات ينبغي علينا أن نعرفه؛ لأن الآيات لها معنى شرعي ولها معنى لغوي.
فالمعنى الشرعي للآيات: الذي أراده الله –سبحانه وتعالى–، إذا أردنا أن نعلمه فعلينا أن ننظر في سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، كيف طبق النبي –صلى الله عليه وسلم– هذه الآيات؟ كيف عاش النبي –صلى الله عليه وسلم– بهذا القرآن؟ سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–

أمر هام جدًا لكل مسلم، لا يكمل إيمانك ولن يكمل إيمانِك حتى تعرفي سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ لأنه من شروط الإيمان أن يحب الإنسان النبي –صلى الله عليه وسلم–.

حب؟! كيف نحب من لا نعرف؟ لو سألت شاب يحب مغني من المغنيين، ستجده يعرف كل ألبوماته، ستجده يعرف حفلاته، يعرف عنه كل شيء، لأنه يحبه. أو لاعب من لعيبة الكرة، أو رجل مناضل من مناضلي هذا العصر أو العصر الماضي.

فكيف نحب النبي –صلى الله عليه وسلم–؟

بدايةً حب النبي –صلى الله عليه وسلم– شرط في صحة الإيمان، فلا يثبت إيمان عبد حتى يحب النبي –صلى الله عليه وسلم–. في أركان الإسلام الخمسة نقول: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله" والشهادة علم مع إقرار أنني أعلم أنه رسول الله، وأؤمن به وأقر بذلك، وأعلن ذلك على الملأ أنه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "لَا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ"[1] فلا يثبت إيمان لعبد حتى يحب النبي –صلى الله عليه وسلم–.

عمر بن الخطاب يومًا يمشي مع النبي –صلى الله عليه وسلم– فيقول عمر للنبي –صلى الله عليه وسلم–: "يا رَسولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن كُلِّ شيءٍ إلَّا مِن نَفْسِي، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَا، والَّذي نَفْسِي بيَدِهِ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْكَ مِن نَفْسِكَ" فوقف عمر يفكر وسكت عمر، ترى ماذا كان في ذهن عمر بن الخطاب في هذا الوقت الذي سكت فيه أمام النبي –صلى الله عليه وسلم–؟ لعلها مقارنة بين نفسه وبين النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ نفسي.. النبي –صلى الله عليه وسلم–، نفسي جعلتني أعصي؛ نفسي لها شهوات؛ نفسي أوردتني المهالك؛ نفسي أبعدتني عن ربي، والنبي –صلى الله عليه وسلم– علمني عن ربي، وأخذ بيدي إلى ربي، عرفني الطريق، علمني المرجع وإلى أين المنتهى؛ "فَقالَ له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ، واللَّهِ، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسِي، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: الآنَ يا عُمَرُ"[2]. أي الآن كمل إيمانك.

حب النبي –صلى الله عليه وسلم– أمر هام جدًا، قال الله –سبحانه وتعالى–: "قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ" التوبة: ٢٤، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله. فحب النبي –صلى الله عليه وسلم– أمر واجب على كل مسلم.

ينبغي علينا أن نتعلم عن النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– هو أعلى نموذج إيماني على مر التاريخ، والنموذج البشري الذي ارتضاه الله –سبحانه وتعالى– ليكون أسوة حسنة لكل من جاء بعده –صلى الله عليه وسلم–. بل وجعل الله رسالته مهيمنة على كل الرسائل، قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "لو أنَّ موسى كان حَيًّا، ما وَسِعَه إلَّا أنْ يَتْبَعَني"[3]. فرسالة النبي –صلى الله عليه وسلم– نسخت جميع الرسائل وبعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– رسول جعلت فرض على جميع الأمة من بعد النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يؤمنوا به –صلى الله عليه وسلم–.

النبي –صلى الله عليه وسلم– أعبد خلق الله إلى الله

---

[1] صحيح البخاري

[2] صحيح البخاري

[3] رواه أحمد والبيهقي

وأحب خلق الله إلى الله. أفضل الناس خلقًا على مر التاريخ، أعلى نموذج بشري في الجهاد، وأعلى نموذج بشري في الدعوة، أعلى نموذج بشري في الأبوة، أعلى نموذج بشري في الجيرة، أعلى نموذج بشري في العدل؛ أعلى نموذج بشري في الصبر والتضحية، أعلى نموذج بشري ارتضاه الله –سبحانه وتعالى– في العبادة، أعلى نموذج بشري أعلى من جميع الأنبياء فهو –صلى الله عليه وسلم– النموذج الكامل.

كثيرٌ من شبابنا وكثيرٌ من إخواننا وكثيرٌ من أهل عصرنا يمتدحون فلان أو علان ويجعلونه نموذج يأتسي به الناس، فينبغي علينا أن نتعرف على النموذج الذي ارتضاه الله –سبحانه وتعالى– لنا، فإذا أراد التجار أن يتبايعوا أو يشتروا، فعليهم أن يتعلموا كيف كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يبيع ويشتري.

وإذا أراد الأب أن يربي أبناءه، فعليه أن يتعلم كيف كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يربي أبناءه.

وإذا أراد الصاحب أو المعلم أن يتعامل مع طلابه أو مع إخوانه فينبغي أن يتعلم كيف كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يتعامل مع أصحابه وإخوانه.

وإذا أراد الحاكم أن يحكم الناس فعليه أن يرى كيف كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يطبق العدل. "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ" الأحزاب:٢١.

النبي –صلى الله عليه وسلم– الذي يصلي عليه الله –سبحانه وتعالى–

"إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" الأحزاب:٥٦، بل جعل صلاة الله على العبد معناها أن ندعو للنبي –صلى الله عليه وسلم–، الصلاة معناها الدعاء، وقيل معناها الذكر؛ الذكر الحسن، فإن الله –سبحانه وتعالى– إذا ذكر عبدًا أو إذا صلى على عبد معناها أنه يذكره ذكرًا حسنًا، وإذا صلت الملائكة على عبد معناها أنها تدعو له بالذكر الحسن: أي أن الله –سبحانه وتعالى– يذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– دائمًا ذكرًا حسنًا، وأن الله –سبحانه وتعالى– إذا ذكر عبدًا فإنه يرفعه.

النبي –صلى الله عليه وسلم– له مكان في الجنة

لا ينبغي لأحد إلا لفرد واحد على مر البشرية، على مر التاريخ، رجل واحد يبلغ هذه المنزلة هو النبي –صلى الله عليه وسلم– المقام المحمود. لذلك لما جاء صاحب النبي –صلى الله عليه وسلم– معاذ يسأل النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الثلث الأخير من الليل الذي يتنزل فيه الله –سبحانه وتعالى– ليجيب دعاء المضطرين، وليقبل توبة التائبين، قال يا رسول الله: "أأجعل نصف صلاتي عليك؟" أي أأجعل لك من دعائي نصيب؟ يعني أدعو لنفسي أم أدعو أن الله –سبحانه وتعالى– يذكرك يا رسول الله بالخير؟ قال: أأجعل نصف صلاتي عليك؟ قال: وإن تزد فهو خيرٌ لك. يعني هل تدعو لنفسك إذا كنت في الثلث الأخير من الليل أم تدعو للنبي –صلى الله عليه وسلم–؟ وتقول: اللهم صل على النبي محمد –صلى الله عليه وسلم–، فقال: "إذًا يكفك الله همك"[٤]

من نوايا السيرة التي ننتويها في هذه الحلقات:

[٤] روايات الحديث هنا

أن نصلي على النبي –صلى الله عليه وسلم– كثيرًا، فصلوا على النبي –صلى الله عليه وسلم–، سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– سيرة عطرة، تتعلم فيها الإخلاص، تتعلم فيها التضحية، تتعلم فيها البذل، تتعلم فيها الصبر، تتعلم فيها كيف ترضي الله، تتعلم فيها كيف كانت عبادة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

كل الناس يتعجب من الصدّيق كيف ضحى بماله كله؟ ومن عمر كيف وقف أمام الجميع؟ وكيف كان يسلك إذا سلك فجًا سلك الشيطان فجًا آخر؟ ومن حياء عثمان بن عفان؛ ومن حياء علي بن أبي طالب، كل الناس يتعجب من قوة الزبير بن العوام، ومن إنفاق طلحة بن عبيد الله، ومن ورع عبد الرحمن بن عوف، ومن قوة دعوة مصعب بن عمير، من شجاعة حمزة بن عبد المطلب. كل هؤلاء النماذج نشأت في مدرسة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

يزول العجب إذا علمت أن هؤلاء رأوا من النبي –صلى الله عليه وسلم– ما لا صبر لهم عليه. فما ضحى الصديق إلا لما رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– يضحي بكل شيء، وما وقف عمر وقفات الحق إلا لما رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– يقف وقفات لم يقف أحد مثلها قط. وما ضحى عثمان وما تشجع علي بن أبي طالب إلا لما رأوا شجاعة النبي –صلى الله عليه وسلم–، ما أنفق طلحة إلا لما رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– ينفق ماله كله ثم هو يقترض من الناس لينفق على الناس –صلى الله عليه وسلم–. أفضل من مشى على هذه الأرض حبيب الله –صلى الله عليه وسلم–.
ندخل في سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، وسيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– صعبة؛ أصعب وأكبر من أن نستطيع أن ندركها في أربعة أو خمس حلقات في هذه الدورة. لكن سريعًا العلم يأتي درجات، فإذا بدأنا في سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذه الدورة السريعة فإننا فقط سنضع العلامات الأساسية في بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

النبي –صلى الله عليه وسلم– هو خاتم الأنبياء والمرسلين

وهو الذي بشر به إبراهيم –عليه السلام–: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ" البقرة:١٢٩، فإن إبراهيم –عليه السلام– لما أسكن ذريته في واد غير ذي زرع، دعا الله –سبحانه وتعالى– أن يجعل في هؤلاء القوم "رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ". فكان النبي –صلى الله عليه وسلم– هو دعوة أبيه إبراهيم، أبا الأنبياء خليل الرحمن، وكان هو بشارة عيسى –عليه السلام–؛ فما من نبي بعد إبراهيم –عليه السلام– وقبل النبي –صلى الله عليه وسلم– إلا وبشر قومه ببعثة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

اسمه –صلى الله عليه وسلم– ونسبه:

النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر –صلى الله عليه وسلم–. نسبه أشرف نسب؛ ولأن الدورة سريعة فلا نستطيع أن نقف مع كل كلمة من كلمات سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، لكنه أشرف نسب وإذا بحث رجل في سيرة هؤلاء فستجد لكل رجل من هؤلاء فضيلة مختلفة عن باقي الناس سواء أبيه أو جده أو جد جده أو جد جد جده، كلهم نسب فاضل وهم أصل قريش.

ميلاده –صلى الله عليه وسلم–:

النبي –صلى الله عليه وسلم– ولد في عام الفيل، ولد النبي –صلى الله عليه وسلم– في عام جاء ملك الحبشة ليهدم فيه الكعبة، وذلك لما علم أن الناس أو أن العرب يعظمون هذا البيت وقد بنى بيتًا ولم يأتِ الناس إليه، فاغتاظ من هذا البيت الذي يأتي الناس إليه، الذي رفع قواعده إبراهيم –عليه السلام– وإسماعيل، فجاء ليهدم الكعبة، وكانت قريش وراء عبد المطلب جد النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ في هذا العام وفي هذا الجيل الذي رأى هذا الجيش؛ جيش الحبشة جاء بفيلة ليهدم الكعبة ورأى نصرة الله –سبحانه وتعالى– لبيته، وكيف أن الله –سبحانه وتعالى– أنزل على هذا الجيش طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، كيف أن هذه الفيلة توقفت، وأنها حبسها حابس فلم تستطع أن تتحرك، ولما أراد المقاتلون أن يهجموا على مكة، نزلت عليهم طيرًا من السماء، فحصدتهم وقتلتهم وجعلتهم كأكلٍ كعصفٍ مأكول: أي جعلتهم جيف.

هذا الجيل الذي رأى هذه الآيات؛ شهد مولد النبي –صلى الله عليه وسلم–. وحدثت أحداث عجيبة في الكون، بدايةً أحداث في السماء كانت الشياطين تستمع في السماء إلى الملائكة، فلما ولد النبي –صلى الله عليه وسلم– مجرد مولده وذلك قبل بعثته أُغْلِقَت السماء "وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا" الجن:٨،٩، فجأة امتلأت السماء بالحراس، وفجأة امتنعت الجن والشياطين أن تصعد إلى السماء، وإذا صعد أحدهم إلى السماء يأتي بخبر منها حتى يلقيه إلى كاهن ليضل الناس عن سبيل الله أو إلى ساحر، فإذا به يتبعه شهاب، علمت الشياطين والجن أن هذا زمان بعثة آخر نبي .

اليهود والنصارى كانوا يعرفون أن هناك نبي بعد موسى وعيسى –عليه السلام– اسمه محمد وبشروا به "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ" البقرة:١٤٦، هم يعرفون النبي –صلى الله عليه وسلم– يعرفون بعثته، ويعرفون علامات نبوته، يعرفون دلائله ومعجزاته، يعرفون مكان هجرته، يعرفون دعوته، والأشياء التي يدعو إليها، لكنهم كفروا بالله.

كانت الفرس يعبدون النار، مجوس. وكانت نار الفرس لها ألف سنة لم تطفأ، فلما ولد النبي –صلى الله عليه وسلم– انطفأت هذه النار، فعلمت اليهود والنصارى من كتبهم أن هذا زمان بعثة نبي. قصور الشام أضيئت وعلم قيصر الروم أن هذا زمن بعثة نبي.

ولد النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذا العام؛ عام الفيل، ولد يتيمًا، مات أبوه أثناء حمل أمه فيه، فلم يرَ أبوه –صلى الله عليه وسلم–، وكذلك الأنبياء من أولي العزم؛ عيسى –عليه السلام– لم يوجد له أب، موسى –عليه السلام– لم يتربى مع أبيه. هؤلاء أصحاب العزم أراد الله –سبحانه وتعالى– أن يصنعهم على عينه. فلم يتلقى نبي الله –صلى الله عليه وسلم– حنان الأب إنما صنع على عين الله –سبحانه وتعالى–. أراد الله –سبحانه وتعالى– أن نذكر قصص الأنبياء وقال: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ" يوسف:١١١، فكيف بسيرة سيد الأنبياء –صلى الله عليه وسلم–؟

ولد النبي –صلى الله عليه وسلم– يتيمًا ثم أخذته أمه. وكانت عادة العرب أنها تفتح آفاق الأطفال فكانت لا تربي الأطفال وأولاد السادة خصوصًا في بيوتهم، وإنما كانوا يبعثون بهم إلى المراعي، وإلى الوديان، حتى يتربوا وينشؤوا نشأة قوية، وحتى تتفتح فيها الأذهان، وحتى ينظروا كثيرًا إلى السماء.

النبي –صلى الله عليه وسلم– على عادة العرب بُعث إلى بني سعد، وأرضعته حليمة من بني سعد حليمة السعدية، ووجدت في إرضاعه بركة غريبة، هذه المرأة كان عندها حمار وكان بطيئًا، فلما ركبت بعدما اتفقت مع أم النبي –صلى الله عليه وسلم– على أن ترضعه عامين فإذا بهذا

الحمار يكون أسرع حمارًا، وأما عن الطعام والشراب فأنها وجدت في الطعام والشراب بركة غريبة، فرُزقت في العامين التي كان فيه النبي –صلى الله عليه وسلم– وكانت فقيرة فقر مدقع، رزقت رزقًا واسعًا كثيرًا.

تربى النبي –صلى الله عليه وسلم– على عادة مكة أول عامين في بني سعد، ثم حدثت له حادثة شق الصدر، وبينما النبي –صلى الله عليه وسلم– طفل يحبو أو يجري مع الأطفال وذلك قبل بعثته بأربعين سنة أو بثمانية وثلاثين سنة، فجأة جاءه ملكان فشقا صدره وظن الأطفال أنه مات؛ وهذه الحادثة التي شُقَّ فيها صدر النبي –صلى الله عليه وسلم– الذي نزل فيها جبريل ليغسل قلب النبي –صلى الله عليه وسلم– ويُخرج منه حب الدنيا وشهواتها ويملأ هذا القلب حكمة وإيمان، ثم يلتئم الصدر مرة أخرى بإذن الله وبقدرة الله، في هذه العملية التي يخرج فيها القلب ثم يعود إلى جسد النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ ظن الغلمان والأطفال أنه مات، فجاءت حليمة فلما وجدته ممددًا أخذته واحتضنته ثم ذهبت به إلى أمه، تخاف، أخذته أمه عدة سنوات غير أنها هاجرت به إلى يثرب إلى مكان هجرته، وبينما هي بالأبواء في مكانٍ بين مكة والمدينة قُبضت وماتت، فتربى يتيمًا لعدة سنوات لأبيه ثم يتيمًا ولطيمًا فقد أمه وأبوه –صلى الله عليه وسلم–.

نشأته –صلى الله عليه وسلم–:

وبعث به إلى جده عبد المطلب، نشأ في بيت جده حتى بلغ ثماني سنين، وكان جده يحبه ويجلسه في مجلسه، وكان جده عبد المطلب سيد قومه، فكان لا يجلس أحد على فراشه إلا النبي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وهو ابن ثمان سنين، مات عبد المطلب. عاش النبي –صلى الله عليه وسلم– يتذكر الموت من موت الأب لموت الأم لموت الجد.

نشأ وترعرع في مكة، كانت له أخلاق جميلة. مكة أرض تجارة؛ لهم رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف وكانوا السادة، فكانت العرب تبعٌ لمكة فهي أم القرى، ذلك أن العرب كانوا يتشرفون بوجود الكعبة وسطهم، فكانت كل قبيلة من العرب تضع صنمًا على الكعبة في مقابل أن تؤمّن قوافل مكة، فكان قطاع الطرق على شرق الجزيرة وغربها وشمالها وجنوبها يقطعون الطريق على كل القبائل إلا في مكة، إلا قبيلة قريش وإلا أهل الحرم، فإنهم كانت قوافلهم مؤمنة.

نشأ النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذا الوقت غير أنه يُصنع على عين الله فكان مجهزًا بأخلاق مختلفة، كان –صلى الله عليه وسلم– صادقًا أمينًا، وهو ابن خمس عشر عامًا نشأت حرب بين قريش وهوازن، اسمها حرب الفجار، فجروا فيها ببعضهم بعضًا، وقتلوا بعضهم بعضًا، واستحلوا المسجد الحرام، النبي –صلى الله عليه وسلم– رأى هذه الحرب، وكان يرمي بالنبل مع أعمامه في هذه الحرب دفاعًا عن قريش وعن الحرم. ثم شارك النبي –صلى الله عليه وسلم– وشاهد حلف الفضول؛ ذلك الحلف الذي تكون من سادة قريش لرد المظالم ولإقامة العدل في قريش.

زواجه –صلى الله عليه وسلم–:

فلما بلغ خمسًا وعشرين سنة؛ وكان يعمل في رعي الأغنام ليتكسب من حلال ويأكل من عمل يده، عمل بالتجارة فظهرت قوته، قوة تواصله مع الناس وأمانته وصدقه في تجارته حتى سمعت به امرأة اسمها خديجة، وهذه امرأة كان لها شأن في مكة؛ وكانت تبلغ من العمر أربعين سنة، يعني أكبر منه بخمسة عشرة سنة؛ بعثت إليه ليتاجر لها في مالها، تاجر لها النبي –صلى الله عليه وسلم– في مالها فأعجبها النبي –صلى الله عليه وسلم–، أعجبها صدقه، أعجبها أمانته، أعجبها قوته، أعجبها أنه متحمل للمسؤولية؛ أعجبها أنه يأخذ القرار بقوة وحكمة، فأرادت أن تتزوجه، وبالفعل تزوج النبي –صلى الله عليه وسلم– هذه السيدة من سادات قريش؛ خديجة بنت خويلد وهو ابن خمس وعشرين سنة

وهي بنت أربعين سنة. ومرت الحياة مع النبي –صلى الله عليه وسلم– قبل بعثته سريعة، كان يعمل بالتجارة، يصدق إذا حَدَّث لم يشرب الخمر ولم يسجد لصنم، ولم يعجبه عادات قريش في أنهم كانوا يطوفون بالبيت عرايا، ولم يعجبه استعلاء قريش على سائر الخلق بأنهم الحمس وأنهم أعلى من الناس، فتحلى بأخلاق جميلة.

لما بلغ الثماني والثلاثين من عمره بدأت الإرهاصات والأخبار تتوافد من اليهود والنصارى أن في هذه السنين في هذه الأرض سيّبعث نبي، وبدأت اليهود الذين كانوا يعيشون في يثرب يتكلمون مع القبيلتين الذين يعيشون في يثرب؛ الأوس والخزرج أن هذا زمان نبي، وكانوا يستفتحون من قبل، أي يقولون أن هذا زمان نبي، وأنه إذا جاء أو إذا بعث فإنه سينضم إلينا وأننا سننضم إليه، وأننا سنقتل هؤلاء العرب أصحاب الأصنام، وهؤلاء الملاحدة الذين لا يؤمنون، والصابئة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر "وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا" البقرة:٨٩، والنصارى كذلك. جاءت الأخبار من الرهبان والكهان أن في هذه الأرض سيُعث نبي في هذه الأيام.

خلوته –صلى الله عليه وسلم–:

ثم لما بلغ النبي –صلى الله عليه وسلم– التاسع والثلاثين من عمره بدأ النبي –صلى الله عليه وسلم– يحب الخلوة، فكان يصعد إلى جبل حراء. يصعد إلى الجبل ينظر فيه إلى السماء، ينظر إلى الخلق، ينظر إلى الدواب، ينظر إلى الناس من حوله، ويتفكر في خلق السموات والأرض، وفي خلق الإنسان. وفي الهدف الذي لأجله وُجد هذا الكائن الإنسان، من خلق هذه السموات؟ من خلق هذه الأرض؟ من خلق هذا الإنسان؟، إلى أين منتهى هذا الإنسان؟

هذا ما سنعرفه في الحلقة القادمة، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي لكم. وجزاكم الله خيرًا.

السيرة ٢

الحمد لله على ما خلق، الحمد لله ملء ما خلق، الحمد لله عدد ما في السماوات وما في الأرض، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، الحمد لله على ما أحصى كتابه، الحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء، اللهم صلّ على محمدٍ وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد.

مع دورة بصائر في غرفة الهداية الدعوية في موقع الطريق إلى الله. ومع الدرس الثاني من سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، وقفنا في الدرس السابق عند خلوة النبي –صلى الله عليه وسلم–، وكان ذلك قبل بعث النبي –صلى الله عليه وسلم– بعدة أشهر، حُبّبٍ إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– الخلوة والخلاء، فكان –صلى الله عليه وسلم– يتحنث يعني يتعبد ليالي ذوات العدد. فكان –صلى الله عليه وسلم– يصعد إلى الجبل، والجبل مخلوق مرعب، مخلوق صعب، كان –صلى الله عليه وسلم– يصعد على الأحجار وحده، وكان يمكث فتراتٍ طويلة، فترات طويلة يمكث النبي –صلى الله عليه وسلم– ينظر إلى السماء كما قالت أم سلمة كان –صلى الله عليه وسلم– ينظر إلى السماء وكثيرًا ما كان ينظر إلى السماء، النظر إلى السماء عبادة الأذكياء.

قال الله –سبحانه وتعالى–: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ" آل عمران:١٩٠، الناس يدّعون؛ نريد آية تدل على أن هناك الله، نريد آية تدل على أن كلام الله كلام حق، لما جاءت قريش إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– بعدما بُعِث تسأله عن آية فقالوا: اجعل لنا الصفا جبلًا من ذهب حتى نتيقن أن هناك الله الذي تدعو إليه، فنزل قول الله –عز وجل–: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ" أي أنه مَن أراد أن يذكر آية، ومن أراد أن يتفكر فإن الآيات من حوله، فكل شيءٍ يدل على الله –سبحانه وتعالى–.

حُبّب إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– الخلوة

وكان –صلى الله عليه وسلم–يتحنث الليالي ذوات العدد، وكان –صلى الله عليه وسلم– متزوج، وكان له أبناء في هذا الوقت. كان –صلى الله عليه وسلم– في هذا الوقت يعمل بالتجارة بعدما عمل قبل ذلك قبل زواجه برعي الأغنام، وما من نبيّ إلا ورعى الأغنام؛ ثم أصبح النبي –صلى الله عليه وسلم– يرى أحلام؛ يرى رؤى في المنام: ودام هذا لمدة ستة أشهر فكان يرى رؤية ثم يصبح فإذا بها كفلق الصبح، يعني يشوف رؤية في المنام يصبح الصبح يشوف اللي شافه في المنام بالظبط يحدث، وظل ستة أشهر حتى كان يومًا أذن الله فيه –سبحانه وتعالى– بهداية هذه البشرية، أذن الله –سبحانه وتعالى– بتغيير مجرى التاريخ، أذن الله –سبحانه وتعالى– برحمة الخلق، أذن الله –سبحانه وتعالى– بنزول القرآن ذلك الكتاب المبارك، يوم نزل فيه أمين السماء جبريل فجأة على هيئته ليدعو النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى الله، وليُعَلِّم النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه اصطفاه الله –سبحانه وتعالى– واختاره على سائر الخلق من هذه القبيلة ليكون رسول الله –سبحانه وتعالى– الخاتم.

كيف صُنع النبي –صلى الله عليه وسلم–؟

كيف آمن النبي –صلى الله عليه وسلم–؟

قال الله –سبحانه وتعالى–: "آمَنَ الرَّسُولُ" فكان أول من آمن هو الرسول "آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ" البقرة: ٢٨٥، فجأة وبينما النبي –صلى الله عليه وسلم– على هذا الجبل وحده في هذا الجو من الخلوة والصفاء وجد السماء قد سُدَّت، لم يعد هناك أفق، لم يعد هناك سماء، فجأة مخلوق رهيب لم يره من قبل ولم يسمع عنه من قبل، مخلوق يسد السماء فإذا به يقترب منه ويقترب ثم يأخذه ثم يهزه ويقول: "اقْرَأْ" العلق: ١، يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ما أنا بقارئ، قال: "اقْرَأْ" أعادها عليه ثلاث مرات، رُعب النبي –صلى الله عليه وسلم– فكان أول إحساس دخل في صدر النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذه الرسالة إحساس الخوف، الخوف من الله، إحساس الإعجاز أنه أحس بضعفه أمام قدرة الله وأمام قوة الله –سبحانه وتعالى–.

نزل النبي –صلى الله عليه وسلم– خائفًا ترتعد فرائصه وجوارحه، فقابلته زوجته خديجة فوجدته خائفًا على غير العادة، فهو شجاع لا يخاف من أحد والدليل على شجاعته أنه كان يقوى على أن يبقى أيام في الجبل، والجبل كلكم يعلم أنه صعب المراس، وأنه تسكن فيه وحوش فمَن هذا الذي يستطيع أن يعيش في الجبل، هذه الحياة الصعبة الجافة؟ فكان –صلى الله عليه وسلم– شجاعًا، فعجبت من أمره وإذا به يقول: "زملوني زملوني، دثروني دثروني"، غطوني، ترتعد فرائصه خائفًا ثم قالت له وذكرته بأن الله لا يخزيه لأن فيه صفات؛ هذه الصفات تستجلب رحمة الله.

ما هذه الصفات التي يستجلب بها العبد رحمة الله؟

قالت: "والله لا يخزيك الله أبدًا فإنك لتصل الرحم، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر"[٥]. أي إنك رجل تصل رحمك وهذه صفة بها لا يخزيك الله، بها يحميك الله فلا تخاف من أحد، وإنك تكرم الضيف وهذه صفة من الخلق وحسن الخلق بها يحميك الله، وإنك تقف مع المحتاج وتعين على نوائب الدهر فما لجأ إليك أحد ورددته. صفات كانت في النبي –صلى الله عليه وسلم– قبل البعثة صنعها الله –سبحانه وتعالى– فيه واصطفاه الله –سبحانه وتعالى– بها. ثم ذهبت به إلى عالِمٍ من علماء النصارى، هذا العالم مر بفتراتٍ في عمره حتى استقر على النصرانية؛ إنه ورقة بن نوفل ابن عمها، فلما جاءه النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: مالك؟ فقال: لقد رأيت كذا وكذا، فجأة لم يعد هناك سماء، فجأة وجدت مخلوق له ٦٠٠ جناح اقترب مني وهزني، وحكى له النبي –صلى الله عليه وسلم– ما حدث فاستبشر الرجل وقال: أبشِر، تعجب النبي –صلى الله عليه وسلم– من هذه البشرى، أقول لك سُدَّت السماء ولم يعد هناك أفق ثم تقول أبشر؟ فقال: "إنه الناموس الذي جاء إلى موسى، إنه أمين الوحي، إنه جبريل الذي كان انقطع عن الأرض، جاء مرة أخرى ليأذن الله –سبحانه وتعالى– في هذه البعثة في الرسالة الخاتمة من السماء إلى الأرض في آخر رسالة من السماء، في هذا الكتاب المعجز القرآن الكريم، أذن الله –سبحانه وتعالى– بهذه الرحمة التي ستنفتح على أهل الأرض واختارك الله –سبحانه وتعالى– لتكون هذا الرسول الخاتم. قال: أبشر فهذا الناموس الذي جاء إلى موسى، ليتني فيها جَذَعًا أو ليتني فيها جِذْعًا أي قويًا صلبًا حين يخرجك قومك، فتعجب النبي –صلى الله عليه وسلم– يخرجني قومي! أنا من أنسب العرب، أنا من أفضلهم نسبًا، أنا من أكثرهم أمانة، إن سادة قريش يضعون أماناتهم عندي في بيتي، إن العرب يسرون إليّ أسرارهم، إنه لن يقدر أحد على أن يخرجني، لماذا تقول يخرجك قومك؟ إن الحال الذي أنا عليه من التمكين وحب الناس حال جليلة، فقال: "ليتني فيها جِذْعًا أو جَذَعًا حين يخرجك قومك"، قال: "أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟"[٦] هل سيتبدل الحال؟ قال: نعم، فهذه سنة الله ماضية، قال: إنه ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي وَكُذِّب، هكذا الأنبياء يعاديهم الكفار ويعاديهم الشيطان ويعاديهم أولياء الشيطان ويُكذّبونهم، لاحظ؛ النبي –

[٥] روايات الحديث هنــا

[٦] صحيح البخاري

صلى الله عليه وسلم- لم يكن عنده من الوحي شيء إلا اقرأ، قال ما جاء أحد بمثل ما جئت به -وهل جئت أصلا بشيء؟ وهل أصلًا تعلمت ما به يعادونني حتى الآن؟!- لكنها سنة الله -سبحانه وتعالى- في خلقه، سنة الله -سبحانه وتعالى- الماضية. "كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ" الذاريات٥٢:٥٣، نعم، قالوا عن جميع الأنبياء ساحر أو مجنون.

بُعِث النبي -صلى الله عليه وسلم- وتوالت اللقاءات بين جبريل أمين الوحي المطاع في السماء، الأمين على النبي -صلى الله عليه وسلم-، الصادق الأمين بهذه الرسالة الخاتمة، فكان -صلى الله عليه وسلم- يُصنع بأمر الله ينزل إليه جبريل ليعلمه؛ ينزل إليه جبريل بالقرآن فكان أول ما تعلم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تعلم القرآن. لذلك ينبغي علينا إن أردنا أن نعلم الناس دينًا أن نعلمهم كتاب الله فهذا ما بدأ به الله مع النبي -صلى الله عليه وسلم-. صُنع النبي -صلى الله عليه وسلم- وانفتح قلب النبي -صلى الله عليه وسلم- على معاني القرآن العظيم فكان يأخذه غضًا طريًا من جبريل -عليه السلام- ثم يحفظه، يحرك به لسانه يجتهد في أن يطبقه، وكان حريصًا على أن يردده وراء جبريل، فكان أحيانًا يعجل فقال الله -عز وجل-: "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ" القيامة١٦:١٨.

ونزل القرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم- في مكة:

فكان -صلى الله عليه وسلم- يتعلم ويطبق وليتنا نتعلم لنطبق، كثيرٌ منا يتعلم ليتكلم، نحتاج أن نتعلم ونتربى كما تربى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكما تربى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكان -صلى الله عليه وسلم- يطبق ما يوحى به إليه، فنزل قول الله -عز وجل-: "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا" المزمل١:٢، فقام - صلى الله عليه وسلم- يقوم الليل بما نزل معه من القرآن، ولم يكن نزل معه من القرآن كثير آيات، ثم نزل قول الله -عز وجل-: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ" المدثر١:٢، فانطلق النبي -صلى الله عليه وسلم- ينذر الناس، وانطلق -صلى الله عليه وسلم- يبلغ دين الله إلى الناس، انطلق -صلى الله عليه وسلم- ليعلم الناس كلام الله.

الفترة السرية في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم:

وظل على ذلك ثلاث سنين، ثلاث سنين يجتمع بهم في الخفاء، فدعا أقرب الناس إليه؛ صاحبه الصدّيق أبو بكر ثم زوجته خديجة بدت خويلد، ثم ابن عمه وربيبه الذي كان يربيه ويهتم به علي بن أبي طالب، وكان علي بن أبي طالب يومئذٍ غلام، أسلم مع النبي -صلى الله عليه وسلم- زيد بن حارثة غلامه وكان قد تبناه من قبل حتى أنه كان يقال زيد بن محمد حتى نزل قول الله -عز وجل-: "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ" الأحزاب:٥ فأصبح يُسمّى زيد بن حارثة.

أسلم مع النبي -صلى الله عليه وسلم- المقربون وظل على ذلك فترة ثلاث سنين يسميها أهل السير وأهل العلم "الفترة السرية في دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم-" ولِمَ كانت سرية؟ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يستخفي من الناس، فكان لا يستطيع أن يجهر بالصلاة أمام الناس، كان لا يستطيع أن يقيم الليل في الكعبة، غير أنه انتشرت في أروقة مكة أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب -صلى الله عليه وسلم- يدعي أنه نبي؛ فكانت مكة تعلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو إلى الله، وكانت مكة تعلم أنه رسول من عند الله وأنه يقول ذلك. وكان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يؤمنون به ويصلون معه غير أنهم كانوا يصلون في الشعاب، فكانوا لا يستطيعوا أن يجهروا بالعبادة في وسط مكة حتى أذن الله -سبحانه وتعالى- بالصدع، فنزل قول الله -عز وجل-: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ" الحجر:٩٤.

بداية الدعوة الجهرية

فصدع النبي –صلى الله عليه وسلم– وصعد على جبل الصفا، وكان هذا إيذانًا بالتحول من الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية، بعدما كانوا يجتمعون في دار الأرقم يصلون أصبحوا يجتمعون في دار الأرقم يعلمهم النبي –صلى لله عليه وسلم– ثم يخرجون إلى الصلاة كلٌ على قدره، أبو بكر الصديق صلى في فناء منزله، النبي –صلى الله عليه وسلم– ذهب يصلي في الكعبة، جاء سادة قريش وقالوا كيف تصلي؟ هم يعبدون الأصنام ليست عندهم أي مشكلة في أن يعبد أي إنسان ما يشاء، لكن عندهم مشكلة أن يعبد النبي –صلى الله عليه وسلم– ربه في الكعبة.

هذا لتعلموا أن العداوة أبدية؛ إنهم أولياء الشيطان، إن العداوة الرئيسية بين الشيطان والإنسان "إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا" فاطر:٦، إن الشيطان يعلم مبتغاه، إن الشيطان ليست عنده مشكلة في أن يعبد هذا صليبًا أو أن يعبد هذا حجرًا أو شجرًا أو ألا يعبد أصلًا شيئًا، معندوش مشكلة إن فلان يكون ملحد، إن فلان يكون بوذي ليست عنده أي مشكلة في أن يكون هذا يهوديًا أو نصرانيًا إنما عنده مشكلة أن يكون مسلمًا موحدًا بالله.

قريش قامت الدنيا ولم تقعد، كيف يصلي محمد لربه في الكعبة؟ وتتعجب! أتأذنون في أن يصلي هذا لهبل وهذا للات وهذا للعزى وهذا لمن يشاء؟ أتأذنون في أن يطوف النساء بالكعبة عرايا؟ أتأذنون في أن تقف المرأة تطلب مَن تشاء للزنا في الحرم؟ ثم تنكرون على النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه يعبد ربه في مكة؟!

جولة الصراع الأخيرة بين الحق والباطل

إنها الحرب الضروس بين الحق والباطل، إنها جولة الصراع الأخيرة بين النبي –صلى الله عليه وسلم– مبعوث السماء، بين النبي –صلى الله عليه وسلم– ولي الله وبين الشيطان وأولياءه.

قالوا: لا تصلِّ في الكعبة، قال: سأصلي، قالوا: لا تصلِّ، قال الله –عز وجل–: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ" القلم٩:١٢، أبو جهل قال: لإن صلى محمد في الكعبة لأطأنه بقدمي، وأراد هو وعقبة بن أبي معيط أن يمنعوا النبي –صلى الله عليه وسلم– من الصلاة في الكعبة وخنقوه يومًا، وبينما كان النبي –صلى الله عليه وسلم– قائمًا يصلي في الكعبة يومًا أتوا –بأعذكم الله– بأمعاء الجمال ومخلفات الجمال ثم وضعوها في إناء ثم ألقوها على رأس النبي –صلى الله عليه وسلم– أثناء السجود، وجاء يومًا عقبة بن أبي معيط وبينما النبي –صلى الله عليه وسلم– يركع لربه فخنقه خنقًا شديدًا، حاولوا أن يمنعوه عن الصلاة غير أنه –صلى الله عليه وسلم– جاهد في الله، غير أنه –صلى الله عليه وسلم– صبر على الأذى، غير أنه –صلى الله عليه وسلم– صبر لربه "وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ" المدثر:٧.

وصلى وصلى وصلى؛ صدع – صلى الله عليه وسلم– ونادى على جبل الصفا وقال: "يا بني فهر، يا بني أسد، يا بني فلان، يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمة محمد، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا بني عبد شمس، يا بني عدي، أنقذوا أنفسكم من النار، إني لا أغني عنكم شيئًا، لو أخبرتكم أن خيلا ببطن هذا الوادي مغيرةٌ عليكم –يعني لو أنا أخبرتكم إن فيه حرب جاية عليكم "أكنتم مصدقي؟" قالوا: لا نعلم عليك كذبًا قط، طبعًا هنصدقك انت اسمك الصادق الأمين، أنت عمرك ما كذبت، فقال: "فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد"[٧].

أنذرهم النبي –صلى الله عليه وسلم– من عذاب الله، خوّفهم من عذاب الله، كثيرٌ من الناس يقول لك بلاش تكلمني في العذاب بلاش تكلمني في النار، ابعدني عن النار، النبي –صلى الله عليه وسلم–كان أول ما بُعث به وأول ما أنذر قومه أنذرهم من عذاب الله.

[٧] روايات الحديث هنـا

وتوالت الأحداث وكان لهذه الحركة التوسعية من الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية رد فعل عند أهل مكة من تعذيب وإيذاء لأصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم–:

– مصعب بن عمير شابٌ من المترفين أسلم مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، وظل يدعو إلى الله، لفته أمه في الحصير ثم أوقدت الحصير حتى كاد أن يختنق.

– عمار بن ياسر وضعوا على صدره الحجارة.

– كذلك بلال كانوا يطوفون به مكة.

– خباب كانوا يطفئون الجمر بشحم ظهره؛ يوقدون نارًا وجمرًا ثم يضعونه على هذه النار.

– سمية كانوا يعذبونها حتى طعنها عليه لعائن الله المتوالية أبو جهل بحربة في مكان عفتها فماتت.

تعذيبٌ وإيذاء لمّا قرروا أن يعبدوا الله وحده لا شريك له. وتحمل هؤلاء.

الهجرة إلى الحبشة:

أسلم في هذه الفترة مع النبي –صلى الله عليه وسلم– مجموعة من السادة: عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن عفان، أبو بكر الصديق، كان هؤلاء من سادة قريش غير أنهم لم يتحمل بعضهم التعذيب والإيذاء أذن لهم النبي –صلى الله عليه وسلم– في الهجرة إلى الحبشة، وفي السنة الخامسة وبعد إعلان الدعوة الجهرية وبعد الصدع من النبي –صلى الله عليه وسلم– في مكة، بعدها بعامين هاجر مجموعة من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى الحبشة، وكان هناك ملك اسمه النجاشي؛ والنجاشي لقبٌ لملك الحبشة زي فرعون في مصر كده. كان هذا رجل اسمه أصحمة النجاشي زي كسرى الفرس، وقيصر الروم، وفرعون مصر، نجاشي الحبشة كان اسمه أصحمة.

هاجر هؤلاء إلى هذا الملك الذي لا يُظلم عنده أحد، وكان هذا اختيارًا استراتيجيًا من النبي –صلى الله عليه وسلم–، ثم اشتد الإيذاء وكان ممن يؤذي المسلمين في مكة رجلٌ اسمه عمر؛ عمر بن الخطاب بن عدي، عمه زيد بن عمرو بن نفيل ذلك الرجل الذي كان على دين إبراهيم –عليه السلام– الذي قال عنه النبي –صلى الله عليه وسلم–: يُبعث يوم القيامة وحده، زيد بن عمرو بن نفيل بُعث بالتوحيد، لم يكن نبيًا غير أنه بحث عن التوحيد حتى تبرأ من كل مكة ومن كل الأديان التي كانت موجودة في هذا الوقت إلا دين إبراهيم؛ الحنيفية. طردته قريش وكان أول من طرده أخوه أبو عمر بن الخطاب وعمر كذلك، أقصوه من مكة ومنعوه من أن يدخل إلى الحرم، غير أن مكة لم تحارب زيد بن عمرو بن نفيل كما حاربت النبي –صلى الله عليه وسلم–.

لأن زيد بن عمرو بن نفيل صحيحٌ أنه كان مؤمن لكنه لم يكن صاحب رسالة، لم يكن كالنبي –صلى الله عليه وسلم– جاء بالتغيير، جاء بتغيير الأفكار، وتغيير الأفراد، وتغيير المناهج، وتغيير الحياة؛ فالحياة قبل النبي –صلى الله عليه وسلم– تختلف عن الحياة بعد النبي –صلى الله عليه وسلم–، بل تغير وجه الأرض، تغيرت خريطة العالم، تغيرت خريطة السكان، تغيرت خريطة الأديان، تغيرت عادات الناس، تغيرت المجتمعات ببعثة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

هاجر أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– بضعة عشر رجل وامرأة، في هذا الوقت كان عمر يعذب المسلمين على إسلامهم؛ وأسلمت أخت عمر بن الخطاب مع سعيد بن زيد، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عم عمر، وكان متزوج أخت عمر، ذهب عمر يومًا إلى أخته، في بيت فاطمة بنت الخطاب؛ عمر بن الخطاب سمع القرآن، وصدِم عمر، أخته أسلمت! وابن عمه أسلم!

ثم انطلق إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–، وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– في بيت الأرقم؛ ذلك الشاب الذي كان بيته على جبل الصفا والذي نذر بيته لله ولاجتماعات المسلمين، فكان في كل ليلة يجتمع النبي –صلى الله عليه وسلم– مع أصحابه في دار الأرقم يعلمهم القرآن، ويصلون مع بعضهم البعض، ويعلمهم عن الله، وعن مراد الله. عن الدار الآخرة، عن الجنة والنار، يعلمهم لم خلقوا والهدف من خلقهم، يعلمهم مَن عدوهم.

إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب

ذهب عمر إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– في دار الأرقم، ولما سمعوا صوت عمر منهم مَن خاف ومنهم مَن قرر أن يقتله، غير أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: افتحوا له. ثم عرض النبي –صلى الله عليه وسلم– عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن فأسلم عمر، وكان عمر شديدًا قويّا، وكان ذلك في السنة الخامسة بعد بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم–، فلما أسلم عمر وبعدها بأيام حدثت مشاجرة سب فيها أبو جهل النبي –صلى الله عليه وسلم–، وكان حمزة بن عبد المطلب في صيد فلما عاد من صيده وكان كافرًا قالوا له: إن مكة آذت ابن أخيك محمد وسبوه وشتموه واعتدوا عليه، فذهب حمزة ثم ضربهم بقوسه فشج رأس أبو جهل ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه؟ وأسلم حمزة، فأسلم رجلين أقوياء في أهل مكة لهم كلمة مسموعة في أهل مكة حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب.

في هذا الوقت سمع أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– من التجار في الحبشة هؤلاء الذين كانوا هاجروا؛ سمعوا أن حمزة وعمر أسلموا وأن سادة مكة أسلمت، وأن الدعوة قد انتشرت في مكة، فعاد أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– الذين كانوا في الحبشة ظنًا منهم أن الدعوة انتشرت في مكة بإسلام عمر وحمزة وبعض سادة قريش غير أنهم لما عادوا وجدوا قريش على ما هم عليه من الإيذاء والتعذيب، وجدوا قريش على ما هم عليه من اضطهاد المسلمين، بل إن قريش عقدت عهدًا في قبائلها وبطونها أنه لا يتزوج أحد من المسلمين، ولا يتاجر أحد من المسلمين، ولا يطعمهم أحد، ولا يسقيهم أحد، فوضعوا حصارًا اقتصاديا وسجنًا على النبي –صلى الله عليه وسلمه– وأصحابه، بل وتعدوا ذلك وقالوا: مائة ناقة لمن يقتل محمد بن عبد الله.

حصار شعب أبي طالب

اضطر أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– وبنو هاشم إلى الشِعْب، إلى مكانٍ في وادي بين جبلين دخلوا فيه وأدخلوا فيه النبي –صلى الله عليه وسلم– حمايةً له من قريش التي عقدت جائزة على من يأتي برأسه حي أو ميتًا، ودخلت الدعوة في مرحلة جديدة؛ مرحلة المواجهة، مرحلة الصدام، في هذا الوقت نزلت سورة على النبي –صلى الله عليه وسلم– شيبت النبي –صلى الله عليه وسلم– إنها سورة هود الذي ذكر الله فيها –سبحانه وتعالى– قصة الأنبياء من قبل النبي –صلى الله عليه وسلم–، وكيف آذتهم أقوامهم، ثم كيف نجاهم الله –سبحانه وتعالى–، وأن العاقبة للمتقين.

نزل قول الله –عز وجل–: "اصبر"، صبر النبي –صلى الله عليه وسلم– وحاول –صلى الله عليه وسلم– أن يدخل أو أن يعرض نفسه على مجتمع جديد، ظل النبي –صلى الله عليه وسلم– في شعب أبي طالب ثلاث سنين، إذاً ثلاث سنين دعوة سرية، ثلاث سنين دعوة جهرية؛ الصدع، فيهم أحداث: منها هجرة أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى الحبشة، ثم عودتهم مرة أخرى، ثم لما وجدوا الإيذاء هاجروا مرة ثانية إلى الحبشة، ففيها هجرتين إلى الحبشة:

المرة الأولى: كانوا بضعة عشر

المرة الثانية: كانوا ثمانين رجلا وبضع عشرة امرأة.

ثم دخلت الدعوة في مرحلة الصدام، وحوصر النبي –صلى الله عليه وسلم–، ودخلت بنو عبد المطلب من آمن منهم بل ومن كفر، دخل أبو طالب مع النبي –صلى الله عليه وسلم– يحميه مع إن أبو طالب لم يكن على دين النبي –صلى الله عليه وسلم– فمات كافرًا غير أنه كانت عنده نخوة أننا لا نسلم ابننا، ودخل أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– مع النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذا الحصار الاقتصادي الذي لم تعرفه العرب من قبل في شِعب أبي طالب لمدة ثلاث سنين، ثم في السنة العاشرة ازدادت الأحزان؛ صدٌّ عن سبيل الله، إيذاءٌ وتعذيب، المجتمع الدعوي مجتمع متوقف، نمو الدعوة لا ينمو مطلقًا، أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم في فقرٍ مدقع حتى أن أحدهم كان يشرب بوله كما ثبت بذلك الآثار.

في هذا الوقت قرر المطعم بن عدي أن هذه الصحيفة التي فُرضت على بني عبد المطلب وعلى النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن آمن معه صحيفة جائرة، فقرروا أن ينقضوا هذا العهد لأن فيه ظلم على النبي –صلى الله عليه وسلم– فنادوا في أهل مكة بنقض هذه الصحيفة، وكانت هذه الصحيفة وهذا العهد الذي عقدته مكة مع بطون قريش، هذه الصحيفة وهذا المستند وضعوه في الكعبة فلما دخلوا الكعبة لم يجدوا في هذه الصحيفة إلا لفظ "الله" بعث الله –سبحانه وتعالى– الأرضة –ديدان وحشرات– أكلت هذه الصحيفة ولم يبقَ فيها إلا لفظ الجلالة.

عام الحزن:

ونقضوا هذا العهد وهذه الصحيفة غير أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم تتوقف عنه الأحزان، مجتمع مكة مجتمع فيه صدٌّ عن سبيل الله، مات عم النبي –صلى الله عليه وسلم– أبو طالب الذي رباه بعد موت أبيه وأمه وجده؛ ماتت خديجة زوجة النبي –صلى الله عليه وسلم– التي واسته والتي وقفت بجانبه والتي ضحت بمالها وبيبتها وبتجارتها لأجل نصرة النبي –صلى الله عليه وسلم– التي ربت أولاده. في هذا العام عام الحزن الذي توقفت فيه الدعوة إلى الله والذي مات فيه أبو طالب وماتت فيه خديجة وسُمّي بعام الحزن لذلك.

خرج النبي –صلى الله عليه وسلم– يبحث عن أرض جديدة للدعوة:

فخرج يدعو الناس، ويدعو القبائل إلى دين الله. خرج إلى الطائف فآذوه وضربوه، عاد إلى مكة رفضت مكة أن يدخل فدخل في جوار المطعم بن عدي، فدخل هذا الرجل ومعه السلاح مع أنه كان كافرًا ليحمي النبي –صلى الله عليه وسلم– نخوة وحبّا، اخترق النبي –صلى الله عليه وسلم– المجتمع؛ لم ينعزل عن المجتمع؛ حمى النبي –صلى الله عليه وسلم– الكفار لأنهم كانوا يحبونه مع أنهم لم يؤمنون به؛ لأنه –صلى الله عليه وسلم– كان صاحب أخلاق، لم يعادِ أحد، ولم يؤذ أحد، صبر على الإيذاء صبر على إهانته –صلى الله عليه وسلم– وهو أعز الناس، وهو سيد الخلق.

عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– يعرض نفسه على القبائل، وفي موسم الحج أسلم مع النبي –صلى الله عليه وسلم– ستة عشر نفر من مدينة بعيدة اسمها يثرب، وكان هؤلاء الشباب الستة الذين أسلموا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– في السنة الحادية عشر من بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم–، كانوا هؤلاء النواة التي بها تكونت دولة الإسلام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيرًا.

السيرة ٣

الحمد لله عدد ما خلق، الحمد لله ملء ما خلق، الحمد لله عدد ما في السماوات وما في الأرض، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، الحمد لله على ما أحصى كتابه، الحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء. اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد. في غرفة الهداية الدعوية مع دورة "بصائر" في موقع الطريق إلى الله لا زلنا مع سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

النبي –صلى الله عليه وسلم– يعرض نفسه على القبائل

وقفنا في الحلقة السابقة عند عرض النبي –صلى الله عليه وسلم– نفسه على القبائل:

عرض النبي –صلى الله عليه وسلم– نفسه على القبائل ولم يُسلِم مع النبي –صلى الله عليه وسلم– أحد، ولما عرض نفسه على الطائف آذوه وأدموه ثم عاد إلى المدينة فدخل في جوار مُطعم بن عدي وظلّ النبي –صلى الله عليه وسلم– يحاول أن يجد أرضًا جديدة للدعوة إلى الله يحاول أن يبحث عمن ينصره؛ عمن يأويه ليبلغ رسالة الله –سبحانه وتعالى–؛ فإنه –صلى الله عليه وسلم– لا يستطيع وحده.

وهذه فائدة ينبغي أن نتعلمها؛ موسى –عليه السلام– قال: "وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي" طه٢٩:٣١، النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يبحث عمن يأويه، عمن ينصره. فإنك لن تستطيع وحدك، نعم تحتاج إلى إخوانك، نعم تحتاج إلى التكامل، تحتاج إلى كل طاقة تُوَظّف في طاعة الله.

إسلام ستة نفر من الأوس

النبي –صلى الله عليه وسلم– وجد ٦ من الشباب أعمارهم بين بضعة عشر وفوق العشرين بقليل –يعني ١٥سنة، ١٦سنة، ١٧سنة– هؤلاء عرض عليهم النبي –صلى الله عليه وسلم– الإسلام، عرض عليهم أنه رسول من عند الله، عرض عليهم أنه رسول من إله يملك السماوات والأرض، عرض عليهم أن يُسلِموا ويؤمنوا به وأن يأووه وأن يحموه وأن ينصروه، أسلم هؤلاء الشباب. عمر النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذه اللحظات كان ٥٠ عامًا! ٥٠ سنة!

مرت ١٠ سنين من بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ وأسلم معه ٦ نفر من الأوس، ثم بايعهم النبي –صلى الله عليه وسلم– وآمنوا معه وأسلموا معه ثم انطلقوا في العام الآخر ظلَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– يعرض نفسه على القبائل مرة أخرى؛ عرض نفسه على بنو شيبان فقالوا: نحميك مما نحمي منه نساءنا وأبناءنا إلا الفرس. فردَّ عليهم هذه البيعة وقال: "لا، ما جانبتم الصواب إذ حدثتم بالصدق لكن هذا الدين لا ينصره إلا من أَلَمَّ به من جميع جوانبه" فرفض المهادنة، ورفض البيعة المشروطة في هذا الوقت.

بيعة العقبة الأولى

ثم ظل النبي –صلى الله عليه وسلم– يعرض نفسه على القبائل حتى قابل هؤلاء النفر الستة الذين بايعهم في العام الماضي، وجدهم مرة أخرى ولكن كان معهم مجموعة من الرجال فكانوا بضعة عشر رجلًا فبايعهم النبي –صلى الله عليه وسلم– "بيعة العقبة الأولى" عند العقبة في مكان الحج، بايعهم النبي –صلى الله عليه وسلم– بيعة تسمى "بيعة النساء". بايعهم النبي –صلى الله عليه وسلم– على ألا يُشركوا بالله شيئًا ولا

يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا ولا يأتوا ببهتان ولا يعصوا النبي –صلى الله عليه وسلم–، ثم انطلق هؤلاء النفر والنبي –صلى الله عليه وسلم– ظلَ في مكة، غير أنه بعث معهم مُعلما، بعث معهم مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم ذلك الرجل الذي نزل فيه العتاب "عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى" عبس١:٢، ذلك الرجل الذي استخلفه النبي –صلى الله عليه وسلم– يومًا على أصحابه.

انتشار الدعوة في أرجاء يثرب

بعث النبي –صلى الله عليه وسلم– سفير الإسلام الأول مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم يعلمون هؤلاء القرءان ويمهدون الأرض لهجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، بعثهم يدعون الناس إلى الله وبالفعل كان مصعب بن عمير سفير خير، فما من دار من دور الأنصار – يعني ما من حي من أحياء الأنصار– إلا وفي فترة وجيزة في خلال سنة كان فيها رجل مسلم. رجل مسلم في كل حي، وكان هذا انتصارًا عظيمًا أنه في وقت بسيط تنتشر هذه الدعوة في أرجاء قبيلتي الأوس والخزرج.

بيعة العقبة الثانية

وبالفعل بدأ الناس يدخلون واحدًا وراء الآخر في دين النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ في دين الإسلام، ثم في السنة السادسة وكانت هذه السنة السادسة عشر من بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– أتى ٧٠ رجلاً، كانوا بضعة رجال: ٦ نفر ثم كانوا بضعة عشر رجل ثم في خلال سنة لما هاجر معهم مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم معلمين عادوا ٧٠ رجلاً وامرأة إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– أيضًا في موسم الحج.
شوفوا يا جماعة ميعاد النبي –صلى الله عليه وسلم– أعطى ميعاد مكانش هناك وقتها موبايلات ولا أوقات أو وسائل اتصالات، بعد سنة عادوا في نفس الموعد، من غير تأكيد، ومن غير إنه هو: هابعت لك.. هأكد لك.. في نفس الموعد اللي اتفقوا عليه بايعهم النبي –صلى الله عليه وسلم– وكانت هذه البيعة تسمى "بيعة الحرب.. بيعة العقبة الثانية".

بايعهم النبي –صلى الله عليه وسلم– على الحرب، وهذا إيذان بإقامة دولة؛ فلا تقوم دولة إلا بالقوة، بايعهم النبي –صلى الله عليه وسلم– على السمع والطاعة، وهذا السمع والطاعة كانوا هم أصلا مبايعون، كانوا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– مطيعين لأمر النبي –صلى الله عليه وسلم–، لكنها كانت بيعة مختلفة؛ كانت بيعة على السمع والطاعة في العسر واليسر، على الإنفاق في كل وقت وحين، على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى ألا ننازع الأمر أهله؛ أي على ألا ينازعوا النبي –صلى الله عليه وسلم– في سلطته، فكانت هذه البيعة شبيهة بالبيعة السياسية؛ بيعة على السمع والطاعة في كل وقت، بيعة على الإنفاق والنصرة في العسر واليسر.
بيعة على ألا ننازع الأمر أهله، بيعة على أن يقولوا كلمة الحق لا يخافوا من قومهم ولا يخافوا من العرب ولا يخافوا من العجم؛ لا يخافوا من الفرس، بيعةٌ تسمى "بيعة الحرب". وكان هذا إيذان ببناء دولة الإسلام! ثم عاد هؤلاء ووعدهم النبي –صلى الله عليه وسلم– بأن يستمروا على هذه البيعة وهذا العقد وهذا الميثاق الذي بينه وبينهم حتى يأتيهم، ثم أذن الله –سبحانه وتعالى– إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– بالهجرة.

الهجرة من مكة إلى المدينة

الحال في مكة كان كما هو، إلا أنه حدث حادث غريب وعجيب؛ هذا الحادث أن مكة فجأة اجتمعت في "دار الندوة" وبدأت الشورى بين أهل مكة؛ بين كبراء مكة وسادتها: ماذا نفعل في محمد، وقد أصبح أمره منتشر بين الناس؟ ماذا نفعل في هذا النبي أو في هذه الدعوة الجديدة؟ ماذا نفعل في هذا الرجل الذي يُسفِّه الآلهة؟ والذي يُصِر على أن يصلي ويظهرنا بأننا سفهاء العقل؟ يُظهرنا بأننا ضعفاء العقل، يُظهرنا بأننا لا نفقه شيء قليلو الحكمة، فهو يعبد إله يقول كلامًا حكيمًا ونحن نقول كلامًا لا يسمعنا فيه أحد.

فقررت قريش أن تأتي من كل قبيلة برجل ثم يقتلوا النبي –صلى الله عليه وسلم– فيتفرق دمه بين القبائل، وكانت هذه المكيدة وهذا المكر بالنبي –صلى الله عليه وسلم– سبب من أسباب إيذان الله –سبحانه وتعالى– بهجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

أذن النبي –صلى الله عليه وسلم– لأصحابه بالخروج من مكة إلى الأرض الجديدة التي أسلم فيها هؤلاء السبعين والذين بايعوا فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– على أن ينصروا هذا الدين، وعلى أن يحموه وعلى أن يأووه وعلى أن يدافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم، على أن يدافعوا عنه كما يدافعون عن نسائهم، فأمر النبي –صلى الله عليه وسلم– أصحابه بالهجرة، فهاجر جموع كثيرة من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– ولم يبق مع النبي –صلى الله عليه وسلم– إلا أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب ومجموعة ضعفاء من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يستطيعوا الهجرة.

ثم أذن الله –سبحانه وتعالى– للنبي –صلى الله عليه وسلم– بالهجرة؛ فهاجر النبي –صلى الله عليه وسلم–، وجَهَّز وتجهز وأَعَدَ كل الأسباب من استخفاء ومن تغييرٍ في الطريق ومن تجهيز للدليل الذي يقوده إلى يثرب، ومن ترتيب للطعام والشراب.

أعدَ النبي –صلى الله عليه وسلم– أسبابًا كثيرة، وخرج النبي –صلى الله عليه وسلم– مُستَخْفيًا في حكمة، وعَكَس الطريق؛ فبدلاً من أن يذهب في الطريق مباشرة إلى يثرب خرج النبي –صلى الله عليه وسلم– في الاتجاه الآخر، ومكث في الجبل ثلاثة أيام حتى تستقر قريش وتيأس من البحث عنه؛ ثم خرج النبي –صلى الله عليه وسلم– مهاجرًا إلى هذا المجتمع الجديد.

بناء الدولة الإسلامية

وبالفعل مرّت أيام طويلة حتى وصل النبي –صلى الله عليه وسلم– مع الصديق إلى هذه المدينة الجديدة، وكانت هذه المرحلة مرحلةٌ جديدة في الصراع بين الحق والباطل.. مرحلة جديدة في بناء دولة الإسلام.. مرحلة جديدة في بناء أعظم حضارة مرّت على مر التاريخ.. مرحلة جديدة في تغيير هذا العالم.

بُعِثَ النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأخيرًا استطاع النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يجتمع مع الناس في الجهر؛ فصلى النبي –صلى الله عليه وسلم– أول ما نزل في بني عمرو بن عوف؛ الجمعة.. أخيرًا اجتمع أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– في مكان واحد لِيصّلُون غير مُستخفين.. أخيرًا يستطيع النبي –صلى الله عليه وسلم– أن ينادي بين أظهرهم في أمان!

واجه النبي –صلى الله عليه وسلم– في المجتمع الجديد سلطة قديمة رفضت أن يكون الأمر للنبي –صلى الله عليه وسلم–؛ وهو عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان يُعَد قائدًا في قومه وكانوا يعدونه لاستقبال السلطة، فإذا بالنبي –صلى الله عليه وسلم– يهاجر إلى هذه المدينة ويبايعه الناس ويفرح الناس به.

واجه النبي –صلى الله عليه وسلم– هذه السلطة القديمة التي رفضت الإذعان لكلام الله وإلى كلام النبي –صلى الله عليه وسلم– وسلطته؛ واجه النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذا المجتمع الجديد؛ اليهود "بنو النضير" و"بنو قينقاع" و"بنو قريظة" وقوتهم الاقتصادية، فاليهود

كانوا أهل قوة اقتصادية شديدة، وكانوا يتحكمون في الأسواق، وكانوا يحتكرون السلع، وكانوا يتعاملون بالربا، اليهود هم اليهود على مر العصور.

واجه النبي –صلى الله عليه وسلم– المشركون الذين لم يُسلِموا في هذا المجتمع الجديد؛ واجه النبي –صلى الله عليه وسلم– هذا المجتمع الجديد الذي لم يكن يعرف شيئًا عن أحكام الإسلام؛ لم يكن كثيرُ معرفة بالله ولا كثيرُ معرفة برسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

مجتمع المدينة الجديد

وكان أول ما بدأ النبي –صلى الله عليه وسلم– به: "أفشوا السَّلامَ، وأطعِموا الطَّعامَ، وصِلوا الأرحامَ، وصلُّوا باللَّيلِ، والنَّاسُ نيامٌ"[٨]. فبدأ النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذا المجتمع الجديد بالأخلاق، ونزل قول الله –عز وجل–: "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" المطففين١:٣، فنزل قول الله –عز وجل– بالعدل؛ ونزل حُكم الله –عز وجل– أن المسلمين ينبغي عليهم أن يحكموا بالعدل، وألا يطففوا في المكيال والميزان، وألا يتعاملوا مع الناس بمكيالين، وكان أول ما فعله النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذا المجتمع الجديد وفي هذا البناء الحضاري الجديد؛ في بناء دولة الإسلام.

انظروا إلى هذه المراحل من دعوة سرية إلى دعوة جهرية، من تربية في الدعوة السرية من "دار الأرقم بن أبي الأرقم" إلى دعوة مُعلنة عامة يعرفها القاصي والداني، إلى دولة أقامها النبي –صلى الله عليه وسلم– بناءً راسخًا. كان هذا التوسع الدعوي.. كيف انتقلت الدعوة من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة؟

انظروا كيف أقام النبي –صلى الله عليه وسلم– هذه الدولة؟

مجتمع المدينة يحتاج إلى حلقات لكننا لأننا التزمنا أن ننتهي في هذه الحلقات من ملخص سريع لسيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–كان يعيش في هذه الأرض مجتمع يقتل بعضه بعضًا، مجتمع فيه تنازع وفيه اختلاف؛ الأوس أعداء للخزرج! آخى النبي –صلى الله عليه وسلم– أول ما نزل بين المهاجرين عمومًا وبين الأنصار، فجعل بينهم علاقة قوية هي علاقة الأخوة، وأصبح النبي –صلى الله عليه وسلم– يُحدّث الناس في حدود هذه العلاقة: "لَا يَبِع الرَّجُلُ علَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَلَا يَخْطُبْ علَى خِطبَةِ أَخِيهِ"[٩]، المسلمون إخوان؛ "المُسْلِمُ أخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هاهُنا ويُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ بحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ علَى المُسْلِمِ حَرامٌ، دَمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ"[١٠].

آخى النبي –صلى الله عليه وسلم– بينهم وكانت علاقة قوية جدًا بين المجتمع الجديد "المهاجرين" الذين ضحوا بأموالهم وتركوا كل شيء وبين المجتمع الجديد "الأنصار" الذين آووا ونصروا، والذين استقبلوهم، ودافعوا عنهم بأموالهم وأرواحهم.

إنشاء البيئة الإيمانية

ثم بنى النبي –صلى الله عليه وسلم– أول ما نزل مسجدًا في قباء، وبنى النبي –صلى الله عليه وسلم– لما وصل إلى المكان الذي سيستقر فيه "المسجد النبوي" مسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وكانت هذه بيئة الإيمان العالمية، بيئة الإيمان التي يأرز إليها الإيمان ويرجع إليها الإيمان؛ مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

---

[٨] صححه الألباني
[٩] صحيح مسلم
[١٠] صحيح مسلم

في هذه البيئة الحضارية بنى النبي –صلى الله عليه وسلم– المسجد، قبل أن يفكر النبي –صلى الله عليه وسلم– أين سينام، قبل أن يفكر النبي –صلى الله عليه وسلم– كيف سيأكل وكيف سيأكل أصحابه، قبل أن يفكر النبي –صلى الله عليه وسلم– ما العمل في هذه المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية؛ فكر النبي –صلى الله عليه وسلم– في دين الناس؛ كيف سيصلي الناس؟ وأين سيصلى الناس؟
فكانت أول خطوة؛ تعظيم الصلاة، الله –سبحانه وتعالى– قال: "الذين إنْ مكَّنَاهم في الأرض" أي الصالحون "الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ" الحج:٤١، فكان أول ما فعله النبي –صلى الله عليه وسلم– أن أقام الصلاة وعَظَّم الصلاة فجعل الصلاة لها قيمة عالية حتى إن أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– كانوا يعدون من لا يصلي أو من يتخلف عن صلاة الجماعة منافقًا نفاقًا أكبر.

بنى النبي –صلى الله عليه وسلم– المسجد هذه البيئة الإيمانية ليأرز إليها الناس وليأتي إليها الناس؛ فكل الناس يحتاج إلى بيئة للإيمان. ثم آخى النبي –صلى الله عليه وسلم– بين المهاجرين والأنصار. ثم عقد النبي –صلى الله عليه وسلم– معاهدة بينه وبين اليهود؛ هذه المعاهدة معاهدة دفاع مشترك بين النبي –صلى الله عليه وسلم– وبين اليهود في المدينة بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة على أن يحموا مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم–. ثم اجتهد النبي –صلى الله عليه وسلم– في الدعوة إلى الله، اجتهد النبي –صلى الله عليه وسلم– في تعليم الناس أمر الله. عقد النبي –صلى الله عليه وسلم– المجالس وراء المجالس، ذهب النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى الناس، أمر أصحابه بحسن الخلق.
في هذه الفترة؛ فترة التأسيس لهذه الدولة التي كان فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– مشغول بأحوال المسلمين، كان يصعد على جبل أحد مع أبي بكر وعمر يسمرون؛ أي يسهرون في أحوال المسلمين.

اليهود وبئر الماء

احتكرت اليهود الماء فمنعت الماء من المسلمين؛ وكان لليهود آبار، المسلمون في ضعف ليست عندهم قوة اقتصادية، اليهود يملكون السوق، اجتهد التجار من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– في أن يذهبوا إلى السوق ليبيعوا ويشتروا حتى تكون لهم قوة اقتصادية، ثم عرض عثمان بن عفان على اليهودي رومة أن يشتري منه البئر أو يشتري جزءًا من البئر، وكان اليهود يبيعون الماء للمسلمين بأثمان باهظة؛ فوافق هذا الرجل مقابل مبلغ كبير جدًا، اشترى عثمان نصف البئر فكان البئر أيام لعثمان وأيام لليهودي.
انظروا إلى هذه الأمثلة الرائعة؛ عثمان بن عفان جعل يومه لله وتصدق على المسلمين بماله! فلم يكن يأخذ منهم مالاً ولا درهمًا ولا دينارًا ولا أي شيء في مقابل هذا الماء، فكان الناس يسقون في يوم عثمان ولا يسقون في يوم اليهودي، حتى إن اليهود أنفسهم أصبحوا يأتون للبئر يأخذون الماء في يوم عثمان، فجاء اليهودي وقال: يا عثمان اشتر النصف الآخر، فاشترى النصف الآخر بثمن أضعاف ما اشتراه في النصف الأول، قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: من اشترى بئر رومة فهو في الجنة.

تأسيس قواعد المجتمع الجديد

ظلّ النبي –صلى الله عليه وسلم– يؤسس هذه الدولة وكان أول ما أسس؛ أسس النبي –صلى الله عليه وسلم– علاقة الناس بربهم، ثم العلاقة المجتمعية القوية: التماسك؛ التماسك بين المؤمنين "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ –المؤمنون ذمتهم واحدة، تتكافأ دماؤهم؛ مفيش دم مسلم أغلى من دم مسلم، يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم– إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَداعَى له سائِرُ الجَسَدِ

بالسَّهَرِ والْحُمَّى"[11] إذا عضو اشتكى؛ إذا إصبع من أصابع اليد أصابه التهاب، مرض، الجسم كله يسخن، الجسم كله يصيبه الحمى مؤازرة ودفاعًا عن هذا الإصبع.

أرسى النبي –صلى الله عليه وسلم– قواعد المجتمع الجديد المجتمع المتماسك؛ المجتمع الذي بني على الدين.. الذي بُني على تعظيم دين الله الذي بني على تعظيم الصلاة، الذي بُني على العلاقة القوية بين الناس. هذا المجتمع الجديد الذي أرسى النبي –صلى الله عليه وسلم– دعائمه لم تتركه قريش في حاله ولم تتركه قبائل المشركين في حاله. إنما قرروا غزوه وقرروا أن يهجموا عليه مرة أخرى، ودخلت الدعوة في مرحلة جديدة من مراحل الصراع ألا وهي "مرحلة الجهاد"؛ جهاد الطلب، وجهاد الدفع.

بدأ النبي –صلى الله عليه وسلم– في السنة الثانية وكأنه –صلى الله عليه وسلم– لم يرتاح؛ عاش عمره كله من أول ما بُعثْ –صلى الله عليه وسلم– ينتقل من طاعة إلى طاعة ومن بذل إلى تضحية إلى صبر، عاش يُنَفِّذ أمر الله. يطيع الله يجتهد غاية الاجتهاد في رضا الله –سبحانه وتعالى–.

فرض العبادات

في السنة الثانية فُرِض صيام رمضان، ثم فُرضت زكاة الفطر، ثم صلى النبي –صلى الله عليه وسلم– لأول مرة في حياته بالناس صلاة العيد. اجتمع المسلمون من كل مكان "الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر" ارتجت المدينة بصوت "الله أكبر"، اجتمع الناس في مصلى النبي –صلى الله عليه وسلم–، وخرجت النساء والأطفال يشهدن الخير مع النبي –صلى الله عليه وسلم–.

غزوة بدر الكبرى

ثم وفي هذه السنة كانت "غزوة بدر الكبرى" هذه الغزوة التي نزلت فيها آيات "يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ" الأنفال:٤١، خرجت مكة بعير لها من قريش، هذه الأموال التي اغتصبوها من المسلمين بعدما هاجروا مع النبي –صلى الله عليه وسلم–. خرجت قوافل مكة مرة أخرى إلى الشام تجارة غير أنها هذه المرة خرجت بأموال منهوبة، إنها أموال أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم–، إنها أموال جابر بن عبد الله الذي أخذوا منه ٩ جمال، إنها أموال الصديق، إنها أموال حاطب، إنها أموال أبي بكر، إنها أموال عثمان وطلحة، إنها أموال الزبير وعمر.

عادت قريش بعدما هاجر النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه على دورهم وعلى أموالهم فأخذوها ثم خرجت عيرٌ من قريش.. قافلة خرجت من قريش في تجارة تجاه الشام؛ علم أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– أن أموالهم المنهوبة خرجت في تجارة إلى الشام، خرجوا يبيعونها ويشترون بها أموال؛ فخرجوا يأخذوا هذه الأموال، وعلمت قريش أن النبي –صلى الله عليه وسلم– سيقطع عليهم هذا الطريق وأنه لن يسمح بهذا الظلم أن يستمر، وأنه سيعدو على هذه القافلة؛ فأعدت قريش جيشًا عظيمًا قوامه ألف رجل، ولم يكن للنبي –صلى الله عليه وسلم– جيشًا بمثل هذه القوة ولا هذا العتاد؛ فلم يكن مع النبي –صلى الله عليه وسلم– يستعد للقتال إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجل، يعني تقريبًا ٣١٤ أو ٣١٥ هذه كانت عدة أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– –يعني تقريبا مسجد صغير من مساجدنا ممكن يجتمع فيه ٣٠٠ رجل، هؤلاء هم المسلمون!

[11] صحيح مسلم

والتقى الجمعان "يوم الفرقان" وبالأسباب المادية إذا حسبها الناس يُنصَر المشركون، غير أنهم نسوا أن الله –سبحانه وتعالى– جنود في كل مكان، نسوا أنه رسول من عند الله، نسوا أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، نسوا أن الله على كل شيء قدير، وأن هؤلاء هم جنود الله، وأن هؤلاء هم أولياء الله، نسوا أن النبي –صلى الله عليه وسلم– منصور.

وقف النبي –صلى الله عليه وسلم– في أرض المعركة يرفع يديه إلى السماء حتى ظهر بياض إبطيه، وقف النبي –صلى الله عليه وسلم– يُثني على ربه في هذا الوقت، هل هذا وقت ثناء؟! نعم وقت الثناء؛ فما ضحى النبي –صلى الله عليه وسلم– وما هاجر وما ابتعد وما ترك وطنه لأجل هذه الدين إلا لرضى الله –سبحانه وتعالى– إلا ليُثني على ربه، نعم.. ترك النبي –صلى الله عليه وسلم– أحب بقاع الأرض إلى الله، ترك هذا الوطن الذي نشأ فيه وترعرع فيه ترك هذه البيئة التي كبر فيها وأصبح فيها صاحب مال ومكانة لأجل دينه فِيُضَحّي للدين بكل شيء، يُضَحَّى لله بكل شيء ولا يُضَحَّى بالله لأجل شيء؛ يُضَّحَّى لله بالوطن وَيْضَحَّى لله بالمال ويُضَحَّى لله بالنفس، يُضَحَّى لله بالزوجة والأولاد، يُضّحَّى لله بكل شيء والله لا يُضَحَّى به لشيء.

ضَحَّى النبي –صلى الله عليه وسلم– ووقف يُثني على ربه ليُعلنها صراحة أنه ما هاجر إلا لتكون كلمة الله هي العليا، ما هاجر إلا ليُرضي الرحمن الرحيم، ما هاجر إلا لَيُرضي العزيز الكريم؛ ما هاجر إلا لِيُرضي الجبار القوي؛ ما هاجر إلا لله!

وقف يثني على ربه ثم التقى الجمعان وَأنفَلَ الله –سبحانه وتعالى– النبي –صلى الله عليه وسلم– أموال المشركين، وأنفَلَ الله –سبحانه وتعالى– النبي –صلى الله عليه وسلم– هذه المعركة، فانتصر النبي –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنون على المشركين وغنموا غنائم كثيرة، انتصارًا ساحقًا! هُزِم فيه المشركون. وتعجبت قريش كيف ينتصر ثلاثمائة رجل على ألف رجل؟! هؤلاء معهم عُدة وعتاد الألف، وهؤلاء ليس معهم إلا فرسين والباقي يمشون على أرجلهم، هؤلاء من صناديد القوة والحرب، وهؤلاء لم يتدربوا من قبل على الحرب، كيف انتصر هؤلاء؟! إنها إرادة الله؛ الله –سبحانه وتعالى– الذي ينصر جنده ويُعز أولياءه، انتصر النبي –صلى الله عليه وسلم– في غزوة بدر انتصارًا ساحقا ثم تتابعت الأحداث.

اختلاف الصحابة على الغنائم

عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة منتصرًا، وحذر النبي –صلى الله عليه وسلم– أصحابه من الدنيا، حذر النبي –صلى الله عليه وسلم– من أن ينظروا إلى الغنائم والأنفال؛ لما اختلف أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– فيمن يستحق هذه الغنائم نزل تشريع الغنائم، قال بعضهم: نحن حمينا النبي –صلى الله عليه وسلم– في أثناء المعركة، وقال بعضهم: نحن هجمنا على المشركين وقتلناهم، قال بعضهم: نحن الذين حمينا ظهوركم، نحن الذين كنا صمام الأمان في هذه المعركة، فنزل قول الله –عز وجل–: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ" الأنفال: ١

فحذرهم الله –سبحانه وتعالى– من أن يلتفتوا إلى الدنيا، حذرهم الله –سبحانه وتعالى– من أن ينظروا إلى الدنيا ومن أن يختلفوا على الدنيا، حذرهم الله –سبحانه وتعالى– من أن يريدوا هذه الدنيا.

النبي –صلى الله عليه وسلم– معلمًا ومربيًا وداعيًا

وانطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– معلمًا ومربيًا وداعيًا إلى الله يُعَلّم أصحابه ويربيهم ويدعوهم إلى الله غير أن اليهود كالعادة نقضوا العهود واجتهدوا في نقض العهود، واجتهدوا في تأليب المشركين على النبي –صلى الله عليه وسلم–. أرسل النبي –صلى الله عليه وسلم– عدة سرايا إلى القبائل المجاورة للمدينة مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم– كان عليها مجموعة من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم–.

غزوة أَحُد

ثم في السنة الثالثة من هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، كانت هذه سنة بعد ١٦ سنة من بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ ١٣ سنة في مكة ثم ثلاث سنين في مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم–، النبي –صلى الله عليه وسلم– عنده ٥٣ سنة، خرجت قريش مرة أخرى في ثلاثة آلاف مقاتل في "غزوة أحد" هذه الغزوة العظيمة رأى فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– رؤية، ثم عقد النبي –صلى الله عليه وسلم– المشورة مع أصحابه أن قريش أعدت ثلاثة آلاف مقاتل للهجوم على مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم–. وجاءت الأخبار بعد هذه الرؤية إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– أن جيشًا تحرك من مكة، وهل كان للنبي –صلى الله عليه وسلم– عيون؟ هل كانت له مخابرات؟ هل كانت له أناس يأتونه بالأخبار من بعيد؟ نعم.. كان –صلى الله عليه وسلم– حكيمًا؛ فكان يدير شئون الدولة وكان لا يغفل عن الدعوة.

مراحل انتقال دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم–

مراحل انتقال دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم– كانت مراحل توسعية وليست مراحل استبدالية؛ فلما بدأ النبي –صلى الله عليه وسلم– بالتربية في دار الأرقم بن أبي الأرقم ثم انتقل في مرحلة جديدة إلى الدعوة الجهرية؛ ثم انتقل إلى مرحلة الدولة كانت في كل مرحلة توسعية المرحلة القديمة مستمرة ومصحوبة؛ فلم يترك النبي –صلى الله عليه وسلم– التربية في أثناء الدعوة ولم يترك النبي –صلى الله عليه وسلم– الدعوة في أثناء الدولة، ولم يترك النبي –صلى الله عليه وسلم– الدولة في أثناء الجهاد، فكان –صلى الله عليه وسلم– رئيسًا ومعلمًا وداعيًا ونبيًا رسولًا –صلى الله عليه وسلم–.

في غزوة أحد حدثت أحداث عظيمة، وهذا ما سنعرفه في الحلقة القادمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.. وجزاكم الله خيرًا.

السيرة ٤

الحمد لله عدد ما خلق، الحمد لله ملء ما خلق، الحمد لله عدد ما في السماوات وما في الأرض، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه. الحمد لله على ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيء، الحمد لله ملء كل شيء، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

مرحبًا بكم في الدرس الرابع من سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– على هذه الغرفة؛ غرفة الهداية الدعوية في شبكة الطريق إلى الله.
وقفنا مع سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– عند غزوة أحد وسريعًا قبل أن نبدأ هذه الحلقة بشرح غزوة أحد مراجعة على ما فات.

النبي –صلى الله عليه وسلم– بُعث عند الأربعين، ومكث ثلاث سنين في دعوة سرية يدعو الناس إلى الله، يدعو أصحابه يُربيهم ويعلمهم، يجتمع بهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم يُلقنهم كتاب الله –سبحانه وتعالى– ويعلمهم معاني القرآن العظيم ثم أذن الله –سبحانه وتعالى– للنبي –صلى الله عليه وسلم– بأن يصدع وأن يجهر بالدعوة في بطن مكة فانطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعو الناس في مكة، يدعو الناس في الأسواق وفي البيوت، يدعو الناس في أماكن تجمعهم، في نواديهم، انطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعو الناس إلى الله في كل مكان في الأسواق وفي البيوت وفي الشوارع.
عرض النبي –صلى الله عليه وسلم– دعوة الله على الجميع، غير أن هذا التوسع لاقى من أهل مكة شدة وغلظة وتعذيب وإيذاء للنبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه، ثم انتقلت دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى مرحلة ثالثة وهي شدة الإيذاء، هاجر أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذه المرحلة إلى الحبشة فارين بدينهم استطاع من استطاع منهم أن يهاجر، وثبت من ثبت فيهم مع النبي –صلى الله عليه وسلم–.

أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– ثمانين من أصحابه بالهجرة إلى هذه الأرض التي لا يُظلم فيها أحد "أرض الحبشة"، ثم دخل النبي –صلى الله عليه وسلم– في شعب أبي طالب، ذلك الحصار الذي فرضته قريش على النبي –صلى الله عليه وسلم– وعلى المؤمنين، ثم عرض النبي –صلى الله عليه وسلم– نفسه على القبائل، وخرج النبي –صلى الله عليه وسلم– يعرض نفسه بعيدًا عن أهل مكة في الطائف، ثم عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– مرّة أخرى في سنة تسعة، ودخل إلى مكة في جوار المُطعم بن علي، في هذه السنة ماتت خديجة زوج النبي –صلى الله عليه وسلم– ومات عمه أبو طالب، ثم أذن الله للنبي –صلى الله عليه وسلم– بهذه الرحلة العظيمة المباركة رحلة "الإسراء والمعراج"، هذه الرحلة التي رأى فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– الأنبياء، وعاش فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– يتقلب في ملكوت الله –سبحانه وتعالى–، ويرى ما لا صبر له عليه.
رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– الجنة، ورأى النبي –صلى الله عليه وسلم– الأنبياء، ورأى من الأنبياء هؤلاء الأنبياء الذين لهم قصص معروفة لديه في كتاب الله –سبحانه وتعالى–؛ قصة يوسف –عليه السلام– فرأى النبي –صلى الله عليه وسلم– يوسف –عليه السلام–، ورأى موسى –عليه السلام–، ورأى هارون –عليه السلام–، ورأى إبراهيم –عليه السلام–، وصلى النبي –صلى الله عليه وسلم– بالأنبياء في بيت المقدس في هذه الرحلة المباركة، وكأنها إشارة من الله وأمرٌ من الله بأن الرسالة انتقلت من الأنبياء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–. فخلافة الله –سبحانه وتعالى– في الأرض، وأمر الله –سبحانه وتعالى– تحمله النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد أن أخذ الراية من الأنبياء وصلى بهم جميعًا في بيت المقدس، وكان هذا إيذانًا أن المقدسات والحرمات مسؤولية النبي –صلى الله عليه وسلم– ثم أمته من بعده.

ثم اشتد الإيذاء على النبي –صلى الله عليه وسلم– حتى قررت قريش أن تقتل النبي –صلى الله عليه وسلم–، وجعلت على ذلك هدية كبيرة وجائزة عظيمة لمن يقتل أو من يأتي برأس النبي –صلى الله عليه وسلم– حيّا أو ميتًا.

أذن النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد أمر الله –سبحانه وتعالى– له بأن يهاجر أصحابه إلى هذه المدينة الجديدة التي بايع فيها مجموعة من الناس، ثم بعث إليهم مُصعب بن عُمير وعبد الله بن أم مكتوم ليعلمهم كتاب الله، وليربيهم، وليمهد الطريق لهجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–. بايع النبي –صلى الله عليه وسلم– هؤلاء الشباب مرّة ثم جاءوا المرة الثانية بسبعين رجلا وامرأة، ثم بايعهم النبي –صلى الله عليه وسلم– على إقامة الدولة، وهاجر أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى هذه المدينة الجديدة "مدينة يثرب"، ثم تحولت هذه المدينة إلى أرض للإسلام بعد هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

هاجر النبي –صلى الله عليه وسلم– تاركًا وراءه كل شيء، مضحيًا بكل شيء، مضحيًا بالأرض التي تربى فيها، مُضحيًا لله –سبحانه وتعالى–. هاجر النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى هذه الأرض الجديدة وابتدأت الدعوة مرّة أخرى غير أنها في مرحلة جديدة، مرحلة أقام فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– دولة، مرحلة أقام فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– دين الله –سبحانه وتعالى–. ولأول مرة يصلي أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– الجمعة، ولأول مرة يتمكن المؤمنون من الصلاة ومن إعلاء كلمة الله، لأول مرة تكون كلمة الله هي العليا في هذه الأرض الجديدة مع أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– وتعلو أحكام الإسلام.

أقام النبي –صلى الله عليه وسلم– هذه الدولة وكان أول شيء فعله فيها أنه –صلى الله عليه وسلم– بنى مسجدًا، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، ثم عقد النبي –صلى الله عليه وسلم– مع اليهود ومع سكان هذه المدينة وهذه الأرض الجديدة معاهدة للدفاع المشترك عن هذه الأرض.

ثم انطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعو إلى الله، ويعلم الناس ويربيهم قائمًا بمهام الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقائمًا بمهام النبوة والرسالة في تبليغ كلام الله وتعليم الناس دين الله –سبحانه وتعالى–. غير أن قريش لم تترك النبي –صلى الله عليه وسلم– في حاله فانطلقت قريش تُقاتل النبي –صلى الله عليه وسلم– وكانت معركة بدر.

معركة أحد:

مرت الأيام بعد معركة النبي –صلى الله عليه وسلم– في بدر، ثم جاءت معركة أحد وكان ذلك في السنة الثالثة من هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، يعني كانت تقريبًا بعد ١٦ سنة من دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم–، كان عمر النبي –صلى الله عليه وسلم– آنذاك تقريبًا ٥٦ سنة ولم يبقَ في حياة النبي –صلى الله عليه وسلم– إلا بضع سنين.

انطلقت قريش في ثلاثة آلاف مقاتل إلى مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأعدوا العدة والعتاد لقتال النبي –صلى الله عليه وسلم–، وعقد النبي –صلى الله عليه وسلم– المشورة؛ يا ترى هل نقاتلهم في أرض المدينة أم نخرج إليهم على حدود المدينة؟

شباب المسلمين قالوا بل نخرج إلى حدود المدينة، كهول المسلمين قالوا بل نقاتل في مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم–، لأننا أدرى بالشعاب والطرق منهم، غير أن الغالبية كانت للخروج على الحدود، فنزل النبي –صلى الله عليه وسلم– على أمر الشورى، ولم يكن النبي –صلى الله عليه وسلم– يُخالف الشورى، في هذا الوقت في الشورى انطلق الكهول يلومون على الشباب كيف تخالفون أمر الكهول وكيف تخالفون أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– وقد رأيتم أنه يعجبه أنه يقاتل داخل المدينة؟!

في هذا الوقت دخل النبي –صلى الله عليه وسلم– ليلبس لأمة الحرب أي ثياب الحرب، فلما عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– وجد الشباب يقولون رجعنا يا رسول الله إلى قولك فلنقاتل داخل المدينة، فقال: لا، ما كان لنبي لبس لأمة الحرب أن يرجع حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وهكذا القائد إنه يتحمل قراراته، نزل النبي –صلى الله عليه وسلم– على الشورى.

ثم أعد النبي –صلى الله عليه وسلم– جيشه، وخرج مع النبي –صلى الله عليه وسلم– ألف مقاتل، غير أن المنافقين تركوا الجيش في منتصف الطريق –وهكذا دائمًا المنافقون– لا يستمرون على طاعة، تركوا الجيش في وقتٍ كانوا أحوج ما يكون إليهم، تركوهم وعادوا إلى المدينة، فأصبح جيش النبي –صلى الله عليه وسلم– سبعمائة مكان ألف، ٣٠٠ واحد رجعوا؛ رجعوا في وسط المعركة.

صفَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– جيشه بين جبلين بين جبل الرُماة وجبل أحد، وأمر النبي –صلى الله عليه وسلم– سبعين رجلا أن يقفوا على جبل الرماة، وجعل عليهم عبد الله بن جبير، وبدأت المعركة، وانتصر المسلمون وأسقطوا تسع رايات من رايات قريش، وبدأت الغنائم تظهر، وانطلقت نساء قريش يعتصمن بالجبل، وظهرت الخلاخل وظهر الذهب. هنا حدث بلاءٌ شديد وفتنة عظيمة، هؤلاء الذين كانوا على الجبل؛ جبل الرُماة لما رأوا الغنائم ولما رأوا المعركة كادت أن تنقضي انطلقوا إلى هذه الغنائم يأخذونها، وقف عبد الله بن جبير ينادي يقول: "أمرنا النبي –صلى الله عليه وسلم– ألا نترك المكان، أمرنا النبي –صلى الله عليه وسلم– أن نثبت في أماكننا" من يثبت على دينه في وقت الأزمة؟

لا تترك ثغرك مهما كان

هؤلاء لم يكن لهم أي دورٌ في المعركة غير الحماية، فهم لم يقاتلوا حقيقةً، إنما كانوا من وراء الجيش وكانوا صمام أمان، هناك كثير من الناس لهم دور في الدين صمام أمان، لكن إذا تركوا هذا الدور وإذا تركوا هذا الثغر تسقط الراية.

وهذا ما حدث؛ بالفعل انطلق هؤلاء وتركوا الجبل، وكان آنذاك قائد الميمنة خالد بن الوليد؛ قائد ميمنة جيش الكفار ولم يكن أسلم بعد، فانطلق خالد بن الوليد والتف حول جيش النبي –صلى الله عليه وسلم– وصعد فوق الجبل ثم نادى بأعلى صوته: "اعلُ هبل" فعلى المشركون بعدما كادوا أن ينهزموا وأصبح جيش النبي –صلى الله عليه وسلم– بين طائفتين من المشركين؛ بين جيش يقاتل من فوق الجبل وبين جيش قادم من أمامه، فتفرق الناس وحدث هرج ومرج، صعد البعض فوق الجبل، وانطلق البعض فارًا إلى المدينة، وبقي النبي –صلى الله عليه وسلم– معه مجموعة قليلة من أصحابه.

مات سبعون من أصحاب الرسول في هذه الغزوة

قُتل في هذه المحنة وهذا البلاء سبعون من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم–. قتل فيهم فاتح المدينة مصعب بن عمير حامل راية النبي –صلى الله عليه وسلم–، قتل فيهم حمزة بن عبد المطلب "أسد الله" الذي دافع عن النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ عمه وأخوه في الرضاعة وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يحبه حبًا شديدًا، ثم أخذوا كبد حمزة قطعوه إربًا وأخذته هند بنت عتبة ووضعته بين أسنانها انتقامًا لأن حمزة كان قد قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أخوها.

قتل في هذه المعركة عبد الله بن جحش ذلك الرجل الذي استعمله النبي –صلى الله عليه وسلم– عدة مرات، ذلك الرجل الذي لما قيل له تمنى –وكان ذلك قبل المعركة بأيام– قال أتمنى أن يأتي رجل صنديدًا يقتل في المسلمين كثير لا يستطيعه أحد فأقوم فأقتله، ثم يأتي آخر يفعل ذلك فأقوم فأقتله، ثم يأتي ثالث فيفقأ عيني ويبقر بطني ويجدع أنفي ويقطع أذني فأقابل ربي بدمي، فيقول عبدي ما فعل فيك هذا؟ فأقول فيك يارب. قُتل عبد الله بن جحش؛ قُتل في هذه المعركة أنس بن النضر ذلك الرجل الذي كان في التجارة ولم يشهد بدر، فلما عاد إلى المدينة وجد النبي –صلى الله عليه وسلم– قد خرج، فانطلق خارجًا وراء النبي –صلى الله عليه وسلم– فلما رأى الناس فيها هرج ومرج والناس تعود والناس تفر انطلق إلى جبل أحد وقال: "واهًا لريح الجنة إني لأرى ريح الجنة دون أحد".

قتل في هذه المعركة حنظلة ذلك الرجل الذي تزوج قبل المعركة بيوم، فلما سمع حي على الجهاد حي على الجهاد، يا خيل الله اركبي، انطلق مجاهدًا مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، ومات حنظلة في هذه المعركة وغسلته الملائكة في أول ليلة من ليالي فرحه في ليلة عرسه، مات حنظلة وهو جُنب وغسلته الملائكة لم يستطع أن يغتسل ليلحق بالنبي –صلى الله عليه وسلم–، إنما لحق بالنبي –صلى الله عليه وسلم– لما سمع النداء، كثير منا يتأخر عن الصلاة وكثير منا يتأخر عن نصرة دين الله؛ حنظلة لم يتأخر.

هزيمة المسلمين في أرض الشهداء

هذه المعركة العظيمة معركة أحد "أرض الشهداء" هُزِم فيها المسلمون بعد ما كادوا أن ينتصروا، ووقع النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ حفر له ابن قمئة حُفرة ثم دفعه فيها، فسقط النبي –صلى الله عليه وسلم–، ثم ضربه ضربًا شديدًا فدخلت خوذة النبي –صلى الله عليه وسلم– في وجهه، وسال وجهه دمًا وَكُسرت أسنانه، وجاء طلحة بن عبيد الله ليدافع عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، فحمل النبي –صلى الله عليه وسلم– وصعد به الجبل، حتى كاد ظهره أن يكون مثل القنفد من كثرة السهام التي تلقَّاها في ظهره وفي يديه، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: اليوم يوم طلحة من أراد أن يرى شهيدًا يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة، انطلق أبو بكر مسرعًا ليدافع عن النبي –صلى الله عليه وسلم–.

معركة أُحد؛ معركة الأبطال، معركة التضحيات، معركة كشفت لنا كثيرًا من الأحداث، وعرّفتنا أن مخالفة أمر واحد من أوامر النبي –صلى الله عليه وسلم– ربما يودي إلى الهلاك، ربما يتحول الانتصار إلى هزيمة إذا خالفنا أمرًا واحد من أوامر النبي –صلى الله عليه وسلم–، إذا تركنا ثغورنا التي أمرنا الله –سبحانه وتعالى– أن نقف عليها.

كل يقف على ثغر.. فلا يترك أحد ثغره

كثير من الناس ربما يستهين أو يحتقر ثغره الذي يقف عليه في دين الله، هذا ينظف المسجد، وهذا يؤذن، وهذا يدعو إلى الله، هذا يكتب كتاب، وهذا ينشر الكتاب، هذا يصوّر، هذا يسوق، هذا يُنفق، هذا يتعلم، هذا يُعلم الصبيان القرآن، كلٌ يقف على ثغر فلا يترك أحد ثغره، فربما نؤتى من قبل هذه الثغور التي نتركها لأجل غيرها.

غزوة حمراء الأسد

ثم بعد هزيمة أحد؛ أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– الناس أن يستمروا في القتال، فكانت غزوة حمراء الأسد، وشَرَطَ النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يقاتل فيها من كان حول النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ ونزل قول الله –عز وجل–: "الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" آل عمران١٧٢:١٧٣.

انطلق أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– يقاتلون، وهكذا المؤمنون لا يستكينون ولا يضعفون ولا يهينون إنهم هم الأعلى، إن المؤمنون دائمًا يعملون، يستمرون على عكس المنافقين، ثم عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة وتوالت الأحداث.

ظنت قريش بهزيمة أحد أنهم الآن يقدروا على استئصال شأفة الإسلام، الآن يقدرون على القضاء على النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه، وهم واهمون "يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" الصف:٨، الله –سبحانه وتعالى– ينصر دينه ويعز أولياءه.

اليهود ونقضهم المعاهدة

نقضت اليهود، وكان أول ما نقض من اليهود المعاهدة مع النبي –صلى الله عليه وسلم– بنو قينقاع، فأجلاهم النبي–صلى الله عليه وسلم– عن المدينة، ثم نقضت بنو النضير العهد مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولما نقضوا العهد مع النبي –صلى الله عليه وسلم– حاربهم النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأجلاهم أيضًا عن المدينة، واجتمعت اليهود في خيبر ولم يبقى في يهود المدينة إلا بنو قريظة.

خرجت بنو قينقاع إلى الشام في سنة ٢، ثم خرجت بنو النضير إلى خيبر في سنة ٤، وكان ذلك بعد أحد بعدة أشهر ولم يبقى في المدينة إلا يهود بنو قريظة.

اليهود ومساعدتهم للمشركين

في هذا الوقت قررت اليهود أن تساعد المشركين لاستئصال شأفة الإسلام، وبالفعل فعلوا ذلك، فانطلقوا يؤلبون قبائل العرب لقتال النبي –صلى الله عليه وسلم– وذلك حول المدينة، ثم انطلقوا يؤلبون قريش للهجوم على النبي –صلى الله عليه وسلم–.

وبالفعل تجمعت القبائل في كل مكان، في هذه السنة في سنة أربعة كثّرت السرايا، فأخرج النبي –صلى الله عليه وسلم– عدة سرايا لقتال القبائل حول مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم–، غير أن الأمر كان أصعب من ذلك.

غزوة الأحزاب

اجتمعت الأحزاب من كل مكان، اجتمعت أحزاب الكفر من كل مكان، واجتمعت قبائل العرب من كل مكان، واجتمعت اليهود مع قريش في عشرة آلاف مقاتل ليحاصروا مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم– فكانت غزوة الأحزاب، غزوة الأحزاب غزوة صعبة بل أصعب ما يكون. وعقد النبي –صلى الله عليه وسلم– المشورة مرةً أخرى، يا ترى ماذا سنفعل في هذه الأحزاب؟ عشرة آلاف مقاتل خرجوا ليحاصروا مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم– وليستأصلوا شأفة الإسلام وكان ذلك في سنة ٥ هجرية.

النبي –صلى الله عليه وسلم– سمع من أصحابه؛ فقال سلمان؛ ذلك الرجل الذي جاء من بلاد فارس –إيران في هذا الزمان– سلمان الذي جاء من بلاد فارس وكان أبوه مجوسيًا، والذي بحث عن الإيمان في كل مكان حتى سمع بأن أرض يثرب هذه الأرض مُهاجر نبي –يعني مكان هجرة نبي– فانطلق يبحث عنها غير أنه بيع في الأسر غدرًا إلى أحد اليهود، فلما رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– عَلِمَه من أخبار النصارى من قبل، وعرف أنه هو النبي نبي هذا الزمان، فأسلم معه ثم تحرر سلمان بمساعدة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

قال يا رسول الله كنا إذا حُوصرنا تخندقنا، يعني كنا في بلاد فارس إذا حاصرتنا الأعداء حفرنا خندق حتى لا يصل إلينا الأعداء، أعجبت النبي –صلى الله عليه وسلم– هذه الفكرة، والنبي –صلى الله عليه وسلم– كان صاحب عقل مفتوح، فكان –صلى الله عليه وسلم– يشاور أصحابه ويأخذ برأيهم، وبالفعل أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– بحفر خندق حول المدينة، وحفر النبي –صلى الله عليه وسلم– الخندق مع أصحابه، فكان هو يحمل التراب.

وتجمعت أحزاب الكفر عشرة آلاف مقاتل حول مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم–، حفر أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– الخندق في عدة أيام، ثم وقفوا بالنبل والسيوف والرماح يحمون هذا الخندق على طرفه حتى لا تدركهم قريش من الطرف الآخر وظلوا على ذلك أيام.

اليهود داخل مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم– هم اليهود، كان بينهم وبين النبي –صلى الله عليه وسلم– معاهدة، غير أنهم نقضوا هذه المعاهدة، نقضوها فعلاً، كانت نساء المسلمين في أحد الديار تجمعوا لأن الرجال يقاتلون على أطراف المدينة أمام الخندق، اليهود كانوا في المدينة، وجاء الخبر إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– أن اليهود نقضوا العهد، وأنهم انطلقوا يهجمون على نساء وأطفال المسلمين؛ موقف صعب.

الحالة الاقتصادية للمسلمين في الغزوة

أما الحالة الاقتصادية فيقول جابر: "مر علينا ثلاثة أيام لم يجد أحدنا ذواقا" لم يكن معنا أي طعام، زوجة جابر أعدت طعامًا للنبي –صلى الله عليه وسلم– وصاحبيه، فدعا النبي –صلى الله عليه وسلم– في معجزة رآها الجميع؛ الجيش كله، جيش الأحزاب مع النبي –صلى الله عليه وسلم– كانوا سبعمائة رجل، سبعمائة رجل أمام عشرة آلاف مقاتل، فقرٌ شديد وبردٌ شديد.

يومًا، وأثناء ما كان أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– يحرسون الخندق، قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: من يمر داخل الخندق إلى الفريق الآخر ويأتيني بخبر القوم ويكون في الجنة؟ والصحابة كانوا إذا سمعوا كلمة الجنة تأهبوا، فلم يرد أحد، فقال من يأتيني بخبر القوم ويكون معي في الجنة؟ يااه أعلى درجات الجنة، أيضًا لم يرد أحد، حتى قال: قم يا حذيفة، يقول حذيفة وكان الجو باردًا شديد البرودة، جوع وبرد وخوف، قال: فلما سماني النبي –صلى الله عليه وسلم– لم أجد من ذلك بد، وانطلق حذيفة إلى الجانب الآخر ليأتي بخبر القوم.

جنود الله في كل مكان:

الجندي الأول: "نعيم بن مسعود"

نقضت اليهود العهد، غير أن الله –سبحانه وتعالى– له جنود في كل مكان، أسلم رجل في هذا الوقت اسمه "نعيم بن مسعود"، نعيم بن مسعود رجل صاحب حنكة وخبرة عسكرية، فذهب إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، دُلني على شيء، فنظر إليه النبي –صلى الله عليه وسلم– وكأنه يقول الحال ما ترى "خذل عنا ما استطعت" أي حاجة تعرف تعملها اعملها، زي ما إنت شايف كده اعمل أي حاجة.

فذهب نعيم بن مسعود إلى اليهود وقال: "إن قريش أرادت الغدر، وإنهم سيتركونكم لمحمد وإنه سيقطع رقابكم، فخذوا من قريش عهدًا واطلبوا منهم أمانًا، خذوا منهم عدة رجال واطلبوا منهم أن يكون معكم في حراستكم رجال من قريش". ثم ذهب إلى قريش وقال لهم: "إن اليهود قوم غدر، وإنهم سينصرون محمدًا عليكم، فخذوا منهم العهد والأمان، وإنهم سيطلبون منكم رجال للحراسة حتى يسلموهم إلى محمد حتى ينجوا بمحمد". وبالفعل نجحت هذه المكيدة وقالت قريش لما بعثت اليهود إليهم أن نريد رجالًا منكم يكونوا في الحراسة غدرت يهود.

الجندي الثاني: الصبا

غير أن الله –سبحانه وتعالى– أراد ليعلمنا جميعًا، وليعلم النبي –صلى الله عليه وسلم– من قبلنا، وليعلم أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه –سبحانه وتعالى– على كل شيء قدير؛ أرسل –سبحانه وتعالى– جندي من جنوده اسمه "الصبا"؛ ريح شرقية أرسلها الله –سبحانه وتعالى– على قريش، فاقتلعت الخيام لم تتحمل قريش ولا قبائل العرب هذه الرياح الشديدة، فانطلقت قريش عائدة إلى مكة وانطلقت قبائل العرب تفر من هذا الجو الشديد وهذه الريح الشديدة التي كادت أن تهلكهم أو أهلكتهم، ونصر الله –سبحانه وتعالى– جنده وحده، وهزم الله –سبحانه وتعالى– الأحزاب وحده، ليعلم العالم أن الله –سبحانه وتعالى– على كل شيء قدير، وأن الله –سبحانه وتعالى– قادرٌ على نصر جنده، وأن الله –سبحانه وتعالى– قادر على إعزاز أوليائه.

غزوة بني قريظة

هُزمت الأحزاب وعاد النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة وكانت غزوة بني قريظة؛ هذه الغزوة التي غزاها النبي –صلى الله عليه وسلم– في يهود بني قريظة، لما عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى بيته من الأحزاب وجد جبريل يلبس لأمة الحرب وقال: لم تنتهي الحرب بعد، قال إلى أين؟ قال: إلى بني قريظة فقال: النبي –صلى الله عليه وسلم– "لا يُصَلِّيَنَّ أحَدٌ العَصْرَ إلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ"[١٢]

فانطلق أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– مسرعين في تجاه بني قريظة، منهم من أدرك العصر ومنهم من لم يدركه، غير أن اليهود اعتصموا بحصونهم وقالوا: "بيننا وبينك حكم"، وكانوا حلفاء لسعد بن معاذ قبل بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقالوا لن نرضى إلا بحكمًا منا أو حكمًا حليفًا لنا، قال من هو؟ قالوا سعد بن معاذ.

رضي النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يحكم سعد بن معاذ عليه وهو من هو –صلى الله عليه وسلم–، وحكم سعد بن معاذ على بني قريظة في صورة جميلة من أشد صور الولاء لله، ومن أشد صور نصرة دين الله، فلم يلاطفهم سعد بن معاذ، ولم يداهنهم سعد بن معاذ، ولم يجاملهم سعد بن معاذ، إنما حكم سعد بن معاذ بالعدل، فقال: الذين خرجوا يقاتلوننا من ظهرنا مع قريش على أن يقتلونا في ظهورنا بعدما نقضوا العهد معنا، وبعد ما كان بيننا وبينهم معاهدة أما هؤلاء الخونة فإنهم يُقتلون؛ يُقتل هؤلاء الذين خرجوا لقتالنا وأما النساء فتسبى.

وأجلى النبي –صلى الله عليه وسلم– هؤلاء، وسبى النساء وقتل المُقاتلة ولم يبقى من قبائل اليهود موجود في مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم– إلا بعض أفراد اليهود وخرج الباقي إلى خيبر.

عُمرة النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه

عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى مهمته يُبلغ دين الله، ويعلم الناس دين الله، غير أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر أصحابه أنهم منطلقون إلى عمرة، وكان ذلك في العام الذي يليه بعد عدة أشهر من الأحزاب وبني قريظة. وانطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– مُحرمًا

---

١٢ صحيح البخاري

ملبيًا ومعه أصحابه إلى بيت الله الحرام "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك"، وأخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أصحابه أنه رأى رؤية أنه يطوف بالبيت، وخرج النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه ملبين. غير أنهم لما نزلوا عند الحديبية –وهي مكان قبل مكة–، بعث النبي –صلى الله عليه وسلم– عثمان بن عفان إلى مكة يستأذنهم ويخبرهم أنه ما جاء محاربًا ولا مقاتلا، وأنه لن يدخل بالسلاح، إنما جاء ملبيًا معتمرا، وكانت مكة تُعظم البيت، وكانوا لا يقاتلون في الحرم. صحيح أنهم كانوا أحيانًا يستحلون، غير أنهم دائمًا كانوا يعظمون هذا الشهر، ويعظمون الأشهر الحرم، ويعظمون مكة، فكانوا لا يردون أحد عن بيت الله. فلما بعث النبي –صلى الله عليه وسلم– عثمان بن عفان مفاوضًا، تأخر عثمان وشاعت إشاعة أن مكة قتلت عثمان بن عفان.

بيعة الرضوان

وهنا بايع النبي –صلى الله عليه وسلم– أصحابه، أتدرون على ما بايعهم؟ بايعهم على الموت، لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يكن يُفرط في الرجال المسلمين، ولم يكن –صلى الله عليه وسلم– يقبل الغدر، مطلقًا لم يقبل الغدر، بايع النبي –صلى الله عليه وسلم– بيعة ارتضاها الله سُميت "بيعة الرضوان" تحت الشجرة، هذه البيعة بايعها أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– للنبي –صلى الله عليه وسلم– على الموت، لأنهم لم يقبلوا أن يُقتل عثمان بن عفان. غير أنها كانت إشاعة ولم تلبث أيام حتى عاد عثمان إلى صف النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه المعتمرين، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– "لعلك طُفت بالبيت" فقال "لا والله يا رسول الله لو مكثت هناك سنة ما كنت لأطوف بالبيت حتى تأذن فيه" انظروا إلى هذا الوفاء بين النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه.

ثم خرج رجال من قريش رجل وراء الآخر؛ بُدَيْل بن ورقاء، عروة بن مسعود الثقفي وأخيرًا سهيل بن عمرو خرجوا يتفاوضوا، أما أحدهم فكان رجل صاحب هدي، أي أنه كان رجل يعظم شعائر الله، كان صاحب عبادة، فلما رآه النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "سوقوا الهدي" أي أروه أننا جئنا لطاعة الله.

وأما الآخر عروة كان رجل حرب، فلما رأه النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "صفوا الجيش"، أي قفوا كأنكم جئتم لتقاتلوا، وهذا من حكمة النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يعرف مداخل الناس، وأن يعرف كيف يتعامل مع كل أحد كلٌ على قدره، ثم لما جاء سُهيل بن عمرو قال: "سهل أمركم".

صلح الحديبية

وعقد النبي –صلى الله عليه وسلم– معاهدة بينه وبين قريش، كانت هذه المعاهدة تُسمى "صلح الحديبية". هذه المعاهدة كان فيها تعظيم أمر الله، معاهدة على السلام بين النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن دخل في حلفه من قبائل العرب، وبين قريش ومن دخل في حلفهم من قبائل العرب، معاهدة على أن تتحرر الدعوة فيستطيع النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يدعو ما شاء كيف شاء. وبالفعل وافقت قريش على هذه المعاهدة التي فيها تنتشر دعوة الله، وتنتشر دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم–، وهذا كان شرطًا؛ خطة يُعظمون فيها حرمات الله يُعظم فيها الدين.

من الشروط الجائرة في صلح الحديبية:

صحيح أنه كانت هناك بنود جائرة في هذه المعاهدة، أنه إذا أسلم رجل من قريش فإن المسلمين عليهم أن يردوه إلى قريش، إذا هاجر الرجل من قريش فإن المسلمين عليهم أن يردوه إلى قريش، وأنه إذا هاجر رجل من المسلمين فإن قريش لا ترده. وغضب عمر من هذا البند وقال

"يا رسول الله قاتلنا في بدر وفي أحد وفي الأحزاب وخرجنا في سرايا كثيرة فلم نُعْطَى الدنية في ديننا؟ فقال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. فذهب عمر غاضبًا إلى أبي بكر وقال: يا أبا بكر، أليس هو رسول الله؟ قال: نعم. قال: ألسنا على الحق وأليسوا على الباطل؟ قال: نعم. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: نعم. قال: يا أبا بكر فلم نُعطى الدنية في ديننا؟ ليه نقبل هذه الشروط؟ لأنها شروط يُعظم فيها أمر الله، لأنها شروط تنتشر فيها دعوة الله، ليست شروط إذلال، فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يقبل بهذه الشروط إلا لأن دين الله سينتشر، لم يقبل هذه الشروط خوفًا ولا خضوعًا ولا خنوعًا إنما قبلها حكمَة. وكان –صلى الله عليه وسلم– يأتيه الوحي من السماء، ومن منا يأتيه الوحي من السماء؟ فقال أبو بكر: يا عمر هو رسول الله، وليس يعصيه وهو ناصره، فالزم غرسه.

عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– ولم يطُوف بالبيت ولم يعتمر، فإنه كانت من الشروط أيضًا المُجحفة أنه يعود إلى عمرته في العام القادم، والصحابة أتوا مُحرمين، صعب جدًا عليهم بعد ما أتوا طوال أيام يلبون "لبيك اللهم لبيك" أن يقال لهم ارجعوا، وهم أصبحوا أهل قوة وأهل حرب، كان الأمر شديد جدًا عليهم.

حتى أن النبي –صلى الله عليه وسلم– شاور زوجته فيما يفعل قالت له: قم أنت يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– واحلق شعرك وانحر هديك، فقام النبي –صلى الله عليه وسلم– ففعل ذلك، فقام أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– يأتسون ويقتدون به –صلى الله عليه وسلم–، وبالفعل قاموا يحلقوا شعورهم ويقصروها وينحروا هذا الهدي ثم عادوا إلى المدينة.

ثمار صلح الحديبية:

غير أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يضيع لحظة واحدة، فبينما كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يعود إلى المدينة، أرسل النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى مملكة الفرس، وأرسل النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى مملكة الروم، وأرسل النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى مصر، إلى مقوقس مصر، أرسل النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى مملكة غسان، وأرسل النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى الشام، وأرسل النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى البحرين.

فلم يترك النبي –صلى الله عليه وسلم– حولاً في جزيرة العرب، أحدًا في جزيرة العرب من الملوك أو رؤساء القبائل أو حول جزيرة العرب إلا وأرسل إليهم رسولا ليدعوهم إلى الله. ذلك أنه لم تكن قبل الهدنة مع قريش وقبل الحديبية لم يكن هذا متوفر، لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يعيش في فترة عدم استقرار، في فترة الصحابة خائفون، لم يكن هناك سلام.

غير أنه لما عقد المعاهدة؛ معاهدة السلام بينه وبين قريش الكفار في الحديبية، انطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعو الناس في كل مكان، وبالفعل بدأت الدعوة تؤتي ثمارها وجاءت الوفود من كل مكان. وبينما النبي –صلى الله عليه وسلم – يعود إلى المدينة علم النبي –صلى الله عليه وسلم– أن اليهود مرّة أخرى يُقلبون قبائل العرب، مرّة أخرى يعملون على إضعاف المسلمين، مرة أخرى ينقضون العهود والمواثيق، فقرر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يغزوهم في خيبر. هذا ما سنعرفه في الحلقة القادمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

السيرة ٥

الحمد لله عدد ما خلق، الحمد لله ملء ما خلق، الحمد لله عدد ما في السماوات وما في الأرض، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، الحمد لله على ما أحصى كتابه، الحمد لله عدد كل شيء والحمد لله ملء كل شيء، اللهم صل على محمدٍ وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.
قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا ونادى مناد في السماء أن قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات،

وفي هذه الحلقة من سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– الحلقة الخامسة وقفنا عند خيبر، وكان ذلك في سنة سبعة من الهجرة، أي بعد عشرين سنة من دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم–، كان عمر النبي –صلى الله عليه وسلم– تقريبا ستين سنة، وبينما النبي –صلى الله عليه وسلم– في مدينته سمع النبي –صلى الله عليه وسلم– أن اليهود ما زالوا يغدرون وينقضون، ما زالوا يؤلبون قبائل العرب ويريدون بالإسلام وأهله شرا، فقرر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يغزوهم في خيبر، وخيبر كانت آخر معركة بين النبي –صلى الله عليه وسلم– واليهود، وكانت آخر شوكة لليهود كسرها النبي –صلى الله عليه وسلم– بفضل الله، بعدما أجلاهم بعد نقض العهود أجلى بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، ثم أخيرا لما اجتمعت بقاياهم في خيبر سار النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى خيبر، وكانت خيبر عبارة عن حصون، وكانت غنية جدًا اقتصاديا.
وانطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– يفتح هذه الحصون، وكان ذلك في السنة السابعة من هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

وانطلق مع النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه، وأعطى النبي –صلى الله عليه وسلم– رايته إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، هو علي بن أبي طالب، وفُتِحَت حصون خيبر، حصن وراء حصن، ثم صالح النبي –صلى الله عليه وسلم– بعضهم، وأجلى النبي –صلى الله عليه وسلم– البعض الآخر، وسبى النبي –صلى الله عليه وسلم– من نساء خيبر، ثم عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى مدينته.
وانكسرت شوكة اليهود، وانطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– ليعلم الناس دين الله، ويرسل الرسل والوفود، في كل مكان، وجاءت الأخبار أن هناك من الوفود من أسلم، بعث المقوقس ملك مصر إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– مارية القبطية وأختها فأسلما، قبل أن يأتي إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–.
غير أنه حدث حادث عظيم في هذه السنة، عاد المهاجرون الأُوَل من الحبشة، ياه! أتذكرون هؤلاء؟ الذين كانوا هاجروا إلى الحبشة، منذ سنين طويلة تقريبا من ثلاث عشرة سنة، من تلاتاشر سنة هؤلاء كانوا في الحبشة، ثم عادوا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذا العام، وكان منهم جعفر بن أبي طالب؛ ذلك الرجل الذي يحبه النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– لا أعلم بما أفرح، أأفرح بفتحي خيبر؟ أم أفرح بقدوم جعفر؟
جاء مع هؤلاء من الحبشة قوم من اليمن أرادوا أن يسيروا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فركبوا البحر، فألقاهم البحر إلى الحبشة فوجدوا هؤلاء مهاجرين إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–، فجاء وفد الأشعريين؛ أبو موسى الأشعري، ومعه رجال من اليمن. وجاء أهل الحبشة، المهاجرين الأول، إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–.
في هذه السنة أسلم رجل له تاريخ عظيم في العلم، أسلم أبو هريرة، أبو هريرة أسلم في فتح خيبر، في عام خيبر، وأسلم أيضاً عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وأتوا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– مسلمين.
اختصر كثيرا، في هذه السلسلة، لا أملك السرد، حتى نمر على السيرة في موجز سريع.

أرسل النبي –صلى الله عليه وسلم– رسولًا إلى ملك غسان، فقُتِل الرسول؛ رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وكما قلت أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يكن يقبل الغدر مطلقًا، فنادى النبي –صلى الله عليه وسلم– الصلاة جامعة، الصلاة جامعة، الصلاة جامعة، وبالفعل اجتمع المسلمون –وكان هذا النداء نداء لاجتماع المسلمين– اجتمع المسلمون من كل المدينة، وعلموا أن النبي –صلى الله عليه وسلم– مبرم أمرًا، أخرج النبي –صلى الله عليه وسلم– سرية، للدفاع عن هذا الرجل الذي قتل، وضع عليها زيد بن حارثة الذي رباه النبي –صلى الله عليه وسلم– أميرًا، قال فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة تسمى سرية الأمراء أو سرية مؤتة.
انطلق القادة الثلاثة زيد بن حارثة ثم يليه جعفر بن أبي طالب ثم يليه عبد الله بن رواحة، وخرج معهم في هذا الجيش شاب جديد، مسلم جديد اسمه خالد بن الوليد، وانطلقوا يقاتلون على حدود مملكة غسان، ثلاثة آلاف مقاتل خرجوا، في هذه السرية، لكن يا ترى؟ كم كان جيش الأعداء؟ جيش الكفار كان يومئذٍ مائتي ألف مقاتل، تلات آلاف قدام ٢٠٠ ألف، يا ترى ممكن تقاتل في معركة زي كده؟ قُتِل زيد بن حارثة، وكادت الراية أن تسقط، فأخذها جعفر بن أبي طالب وأمسكها بيمينه فقطعت يمينه، فأمسكها بشماله فقطعت شماله، فأمسكها بعضده فطعن، وكادت الراية أن تسقط، فانطلق عبد الله بن رواحة الأنصاري فأخذ الراية، وظل يقاتل حتى قتل، وكادت راية النبي –صلى الله عليه وسلم– أن تسقط حتى أمسكها ذلك الجندي الجديد؛ خالد بن الوليد.

وانطلق خالد يمسك راية النبي –صلى الله عليه وسلم– وتولى إمارة الحرب بغير إمرة، فلم يوله النبي –صلى الله عليه وسلم– غير أنه لم يترك راية النبي –صلى الله عليه وسلم– تسقط، فقاتل حتى أمسى، ولما نزل الليل عقد خطة جديدة، فغير الميمنة مكان الميسرة، والميسرة مكان الميمنة، وجعل من كان في الأمام في الخلف، وجعل من كان في الخلف في الأمام، ثم وضع خطة للانسحاب لأنه أدرك أن هذه المعركة محسومة لغير المسلمين، ثم استطاع خالد بن الوليد أن ينجو بالبقية الباقية من جيش زيد بن حارثة من هذه الخلية سرية مؤتة، حتى عاد إلى مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم–، فلما قابلوه النساء والأطفال، حزنوا وغضبوا، قال أنتم الفرار، أي كيف تفرون في أرض المعركة؟ فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– بل هم الكرار، أي أنهم متحيزين يعدون العدة، للأخذ بالثأر مرة أخرى، وهكذا الحرب، وهكذا الأيام. قال تعالى: "وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" آل عمران:١٤٠.

انطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– مرة أخرى يعلم الناس، وجاءت الوفود من كل مكان، لتُسلم تسمع كلام الله، ولتتعلم من النبي –صلى الله عليه وسلم–، غير أنه حدث حادث آخر، حياة مليئة بالأحداث، نقضت مكة العهد، وقبل أن نتكلم في نقض العهد، انطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– معتمرا أتذكرون؟ في الحديبية؟ رفضوا أن يعتمر النبي –صلى الله عليه وسلم– وقال له عد في العام القادم. وعاد النبي –صلى الله عليه وسلم– في العام القادم، وقضى عمرته وتسمى عمرة القضاء، ثم عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– ثم جاءته الأخبار أن مكة نقضت العهد، وأن بني بكر حلفاء قريش عدوا على خزاعة حلفاء النبي –صلى الله عليه وسلم–، وكانت المعاهدة معاهدة سلام، نقضوا العهد وقتلوا خزاعة في الحرم، وقريش كان عليها أن تنتصر لخزاعة، لأنهم بينهم وبينهم معاهدة، غير أنهم لم يفعلوا ذلك، بل ساعدوا بكر على قتل خزاعة، وهم يعلمون أن خزاعة حلفاء النبي –صلى الله عليه وسلم–.
خزاعة لم يكونوا مسلمين، لكن نحن قوم نحترم العهود، كانوا حلفاء النبي –صلى الله عليه وسلم–، وقرر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يفتح مكة، وأن يعلنها صراحة، أنه لا إله إلا الله، وأنه رسول الله.

وجهز النبي –صلى الله عليه وسلم– جيشا لفتح مكة لأنهم نقضوا العهد، ولأنهم غدروا وخانوا، ولأنه –صلى الله عليه وسلم– لم يكن يقبل الخيانة، ولم يقبل الغدر، أحد أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو رسول النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى ملك مصر المقوقس اسمه حاطب بن أبي بلتعة، حاطب بن أبي بلتعة كتب جوابًا إلى مكة، أن النبي –صلى الله عليه وسلم– خرج في جيشه لفتح مكة، ونزل جبريل –عليه السلام– إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– يخبره بفعل حاطب، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، ليأتوا بهذا الجواب، وكان قد بعثه مع امرأة ظعينة، يعني امرأة مسافرة، وذهب علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وقبضوا على هذه المرأة وأتوا بالجواب، حاطب بن أبي بلتعة رجل من المهاجرين، حاطب بن أبي بلتعة رجل قاتل في وقت لم يقاتل فيه أحد، قتل في بدر، حاطب بن أبي بلتعة رجل من الدعاة إلى الله، بعثه النبي –صلى الله عليه وسلم– رسولًا إلى مصر، غير أنه أخطأ هذا الخطأ، وبعث جوابا ليخبر المشركين بسرٍ حربي، فوقف عمر ورفع عن سيفه وقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– على رسلك يا عمر، ثم أتى بحاطب وقال يا حاطب ما حملك على فعل ذلك؟ قال: والله يا رسول الله ليس ردة عن دين الله، ولا إرادة لنصر الكافرين على المؤمنين، وإنما ما من أحد من أصحابك إلا وله يد على الكافرين، وأردت أن تكون لي يد عليهم –يعني أردت أن أنا أكون صاحب فضل على هؤلاء–، وإني أعلم أن الله سينصرك –عارف إن ربنا هينصرك هينصرك، وعارف إن الدين هينتصر هينتصر، لكني أحببت إن أنا صاحب فضل، لما أدخل في فتح مكة–، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: أما هذا فقد صدق فلا تقول له إلا خيرا، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

وانطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– معه عشرة آلاف مقاتل، وهذا لم يكن يحدث من قبل، في معركة عشرة آلاف مقاتل، إن النبي –صلى الله عليه وسلم– وقف وحده أمام مكة، وظلت الدعوة تنتشر يوما بعد يوم حتى خرج النبي –صلى الله عليه وسلم– في عشرة آلاف مقاتل في سابقة لم تحدث من قبل، قبائل كثيرة خرجت مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، وحاصروا مكة، ثم دخل النبي –صلى الله عليه وسلم– مكة فاتحا منتصرًا، ولما دخل النبي –صلى الله عليه وسلم– مكة طأطأ رأسه على فرسه، ثم ذهب ليصلي في بيت الله الحرام، ثم عفا عن هؤلاء أهل مكة، إلا مجموعة، هؤلاء المجموعة كانوا من أشد الناس عداوة للإسلام وأهله، منهم عكرمة بن أبي جهل، أهدر النبي –صلى الله عليه وسلم– دمهم، وقال من رآهم فليقتلهم.

ثم انطلق أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– يعبدون الله في مكة، تقول هند فما رأينا الله يعبد في مثل هذه الليلة، أي أن أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– لما تمكنوا من بيت الله الحرام انطلقوا راكعون ساجدون، قارئون للقرآن داعون، هؤلاء أهل عبادة، هؤلاء أهل الله، وعفى النبي –صلى الله عليه وسلم–، عن صناديد مكة، وقال اذهبوا فأنتم الطلقاء، وقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وأسلم مع النبي –صلى الله عليه وسلم– يومئذ ألفي رجل، غير أنه أن الناس في الطائف اجتمعوا لقتاله، فخرج النبي –صلى الله عليه وسلم– إليهم في اثنى عشر ألف مقاتل في غزوة حنين، وكان هذا بعد شهر تقريبا من فتح مكة، في شوال من هذه السنة حاصر النبي –صلى الله عليه وسلم– الطائف، وقاتل النبي –صلى الله عليه وسلم– في اثنا عشر ألف رجل، حتى أن أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– نظر بعضهم إلى بعض وقالوا لن نهزم من قلة لن يهزم اثنا عشر ألف من قلة، فأراد الله –سبحانه وتعالى– أن يعلمهم أن النصر من عند الله، "وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً" التوبة:٢٥، نعم لم تغني عنهم شيئا، وكادوا أن ينهزموا، وانطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– مقاتلا في هذه الغزوة، يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، ثم ينادي على المهاجرين، ثم ينادي على أصحاب بيعة الرضوان، هؤلاء الذين كانوا مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، والذين هاجروا مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، الذين تربوا في دار الأرقم. نادى عليهم النبي –صلى الله عليه وسلم– في وقت الأزمة، إلي عباد الله إلي عباد الله.

وعاد الناس حول النبي –صلى الله عليه وسلم–، ونصر الله النبي –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنين، وغنم النبي –صلى الله عليه وسلم– في حنين غنائم، غير أنه –صلى الله عليه وسلم– لم يوزعها على أصحابه، ولم يوزعها على الأنصار، وكان هذا محل فتنة جديدة.
النبي –صلى الله عليه وسلم– أعطى هذه الغنائم لمسلمة الفتح، لهؤلاء المسلمين الجدد، وفرق المال على المؤلفة قلوبهم، يتألف بالمال قلوب أقوام، الأنصار دخل فيهم الشك، قالوا آويناه ونصرناه في الوقت الذي كانت فيه مكة تعاديه، أما الآن وبعد فتح مكة يا ترى هل سيتركنا؟ هل سيعود ليعيش في مكة؟
ثم لما وزع النبي –صلى الله عليه وسلم– المال في أهل مكة وجدوا عليه، وقالوا يعطيهم وما زالت سيوفنا تقتر من دمائهم، نحن كنا نقاتلهم، عشر سنين ونحن نقاتلهم، ثم الآن لما يفتح الله علينا مكة وتأتي الغنائم يعطي الغنائم لأهل مكة ويتركنا، نحن الذين آويناه ونصرناه، ويصل الأمر إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–، فيقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: اجمعوا لي الأنصار، ولا يجلس أحد إلا الأنصار، واجتمع النبي –صلى الله عليه وسلم– في اجتماع مغلق، إلا بعض أقاربهم، كانوا ليس منهم، ثم قال لهم النبي –صلى الله عليه وسلم–: ما تجدون علي؟ لو شئتم أن تقولوا جئتنا طريدًا فآويناك وجئتنا ضعيفا فنصرناك وجئتنا عائلا فأغنيناك، لكن ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بي؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله بي؟ فقالوا: لله المنة ولرسوله، فقال –صلى الله عليه وسلم–: اللهم اغفر للأنصار، اللهم ارحم الأنصار، الناس دثار، والأنصار شعار، أي أن قربكم مني كقرب الشعر من اللحم، وقرب الناس مني كقرب الثياب –الدثار– من اللحم، أي أنتم أقرب إلي من ثيابي، أنا من الأنصار لو سلك الناس شعبا لسلكت شعب الأنصار، أما ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير، وترجعون أنتم برسول الله، أي قال لهم الناس اختاروا الدنيا وأنتم اخترتم الآخرة، الناس اختاروا الدنيا وأنتم اخترتم الدين، أنا معكم وأنا منكم، دمي دمكم وحياتي حياتكم ومماتي مماتكم، ثم قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصارِ، ولأَبْناءِ الأنْصارِ، وأَبْناءِ أبْناءِ الأنْصارِ"[١٣]، "اسْتَوصُوا بالأَنْصارِ خيرًا"[١٤]، "آيَةُ الإيمانِ حُبُّ الأنْصارِ"[١٥].
لم يرفض النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو قائد، وهو رئيس للدولة، أن يعتب عليه بعض أتباعه، بل إن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يتجاهل ويقول أنا الأقوى، إنما جلس النبي –صلى الله عليه وسلم– يضمد جراحهم، وجلس النبي –صلى الله عليه وسلم– يفهمهم ويوعيهم، أنه اختار لهم الأفضل، أنهم بايعوه على الجنة، ولم يقبل النبي –صلى الله عليه وسلم– أن ينقض العهد، فإنهم ليس لهم إلا الجنة.
وكذلك لما خرج النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد ثمان سنين وقبل موت النبي –صلى الله عليه وسلم– بأيام، خرج إلى أصحابه فقال: "سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً، فَاصْبِرُوا حتَّى تَلْقَوْنِي علَى الحَوْضِ"[١٦]، أي أن الناس سيؤثرون أنفسهم عليكم، وسيأخذون منكم أشياء أنتم تستحقونها، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض.

وعاد النبي –صلى الله عليه وسلم– من حنين، وفي هذا العام فُرِضَ الحج، وحج عتاب بن أسيد مع المسلمين، وكان المشركون ما زالوا يحجون إلى بيت الله الحرام، صحيح أن النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد فتح مكة هدم الأصنام في الكعبة، غير أن المسلمون والمشركون كانوا يحجون في هذا العام.

[١٣] صحيح مسلم
[١٤] صحيح الجامع
[١٥] صحيح البخاري
[١٦] صحيح البخاري

ثم في العام المقبل في السنة التاسعة بعد هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، بعث النبي –صلى الله عليه وسلم– أبو بكر الصديق أميرًا على الحج، ثم بعث علي بن أبي طالب ليلحق الصديق بجواب وبرسالة واضحة المعالم، ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف في البيت عريان.

ثم في السنة اللي بعدها حج النبي –صلى الله عليه وسلم–، وكانت هذه هي الحجة الوحيدة التي حجها النبي –صلى الله عليه وسلم–، عاد النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد فتح حنين إلى المدينة مع الأنصار، وانطلق النبي –صلى الله عليه وسلم– يستقبل الوفود، وفود المشركين من كل مكان الذين جاؤوا ليسلموا.

وسمع النبي –صلى الله عليه وسلم– أن غسان أعدوا جيشا لقتاله، فخرج النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى غزوة تبوك، وكانت هذه هي آخر غزوة غزاها النبي –صلى الله عليه وسلم–، تخلف عنها كعب بن مالك وهلال بن أمية ومضرة بن ربيع، هؤلاء الثلاثة الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت لما تخلفوا عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

خرج النبي –صلى الله عليه وسلم– في جيشه إلى تبوك في مكان بعيد، وقال المنافقون لا تنفروا في الحر، الدنيا حر، لسه هنروح، ونقاتل، وأراد المنافقون أن يقتلوا النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذه الغزوة، ورآهم حذيفة بن اليمان، وعَلِمَهُم؛ ذلك كان صاحب سر النبي –صلى الله عليه وسلم– حذيفة بن اليمان، لأنه رأى المنافقون وقال النبي –صلى الله عليه وسلم– قل لهم يا حذيفة أن يعودوا، لأنهم اجتمعوا في أثناء الطريق، ليقذفوا بحجارة على رأس النبي –صلى الله عليه وسلم–، وعلم النبي –صلى الله عليه وسلم– أنهم سيفعلون ذلك، فقال لحذيفة قل لهؤلاء أن يرجعوا، فانطلق حذيفة يضرب بيده الإبل، الخيل لهؤلاء، وظن هؤلاء أنهم قد كشفوا، ولم يكن حذيفة يعلم أنهم أتوا لقتل النبي –صلى الله عليه وسلم–، إنما كان ينفذ الأمر، غير أنه كان سريعًا في تنفيذ الأمر، ألقى الله في قلوبهم الرعب، فانطلقوا واندسوا في جيش المسلمين مرة أخرى، فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم– أعرفتهم؟ قال عرفتهم، فكان حذيفة يعرف أسماء المنافقين، الذين اجتمعوا لقتل النبي –صلى الله عليه وسلم–.

وعاد النبي –صلى الله عليه وسلم– في غزوة تبوك، واستقبل النبي –صلى الله عليه وسلم– الوفود من كل مكان، وجعل النبي –صلى الله عليه وسلم– يؤمر الناس ويعلم الناس، ثم أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– أصحابه أن يغلقوا الأبواب التي كانت في المسجد، إلا باب الصديق، ثم صعد النبي –صلى الله عليه وسلم– المنبر فأوصى الناس خيرا ثم أوصاهم بالصديق، وقال إن أَمَنَّ الناس علي بماله أبو بكر الصديق، وأنه ما من أحد له يد علينا إلا كافأته إلا الصديق، فإن له يد يكافئه الله بها يوم القيامة.

ثم مرض النبي –صلى الله عليه وسلم– وكان هذا إيذانا بانتهاء الرسالة، بانتهاء مهمة النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذه الرسالة، ليحمل النبي –صلى الله عليه وسلم– أمانة هذه الرسالة لأصحابه من بعده، ومرض النبي –صلى الله عليه وسلم– ثم استأذن النبي –صلى الله عليه وسلم– في أن يمرض في بيت عائشة؟ وظل النبي –صلى الله عليه وسلم– يمرض في بيت أم المؤمنين عائشة حتى قبض –صلى الله عليه وسلم–، بعدما بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وبعدما تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وبعدما علمنا كتاب الله، وبعد ما بين لنا الحق من الباطل، فما من خير إلا ودلنا عليه، وما من شر إلا وحذرنا منه، وما من فتنة إلا وأخبرنا بها، وعلمنا كيف النجاة، وعلمنا أن العصمة في كتاب الله، وأوصانا النبي –صلى الله عليه وسلم–، تركت فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلوا بعدي أبدًا، كتاب الله، وسنتي.

على عجالة مررنا على سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– لم نستطع أن نطرق أبحاثا كثيرة؛ بحث المنافقين الذين كان لهم دور عظيم في تأليب الكافرين، وفي هدم البيت الداخلي للمسلمين، وفي إلقاء روح الفرقة وزيادة روح النزاع بين المؤمنين على مرات طويلة. لم نستطع أن نلقي الضوء على هؤلاء المنافقين في حادثة الإفك، ولا في محاولتهم للتفريق بين المسلمين في بني المصطلق ولا في بنائهم لمسجد ضرار. لم نستطع أن نلقي الضوء على كثير من أبحاث سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، غير أننا أردنا أن نمر سريعا على أحداث سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

ولعلنا إن شاء الله نسرد لكل حدث من هذه الأحداث سلسلة من الحلقات نتعلم فيها هدي النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ كيف تعامل النبي –صلى الله عليه وسلم– مع ربه؟ كيف تعامل النبي –صلى الله عليه وسلم– مع أهله؟ كيف تعامل النبي –صلى الله عليه وسلم– مع رحمه؟ كيف تعامل النبي –صلى الله عليه وسلم– مع أصحابه؟ كيف تعامل النبي –صلى الله عليه وسلم– مع أعدائه؟ كيف دعا النبي –صلى الله عليه وسلم–؟ كيف تحولت دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم– من فرد إلى مجموعة أفراد إلى دولة إلى خلافة وحضارة؟ كيف تحولت هذه الأرض؟ كيف تحولت مفاهيم الناس وأخلاق الناس؟ كيف تغيرت أخلاق الناس؟ كيف نزل القرآن آية وراء آية يعلم ويوجه ويصحح. هذا لعلنا نتركه في دورة أخرى أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيرا،